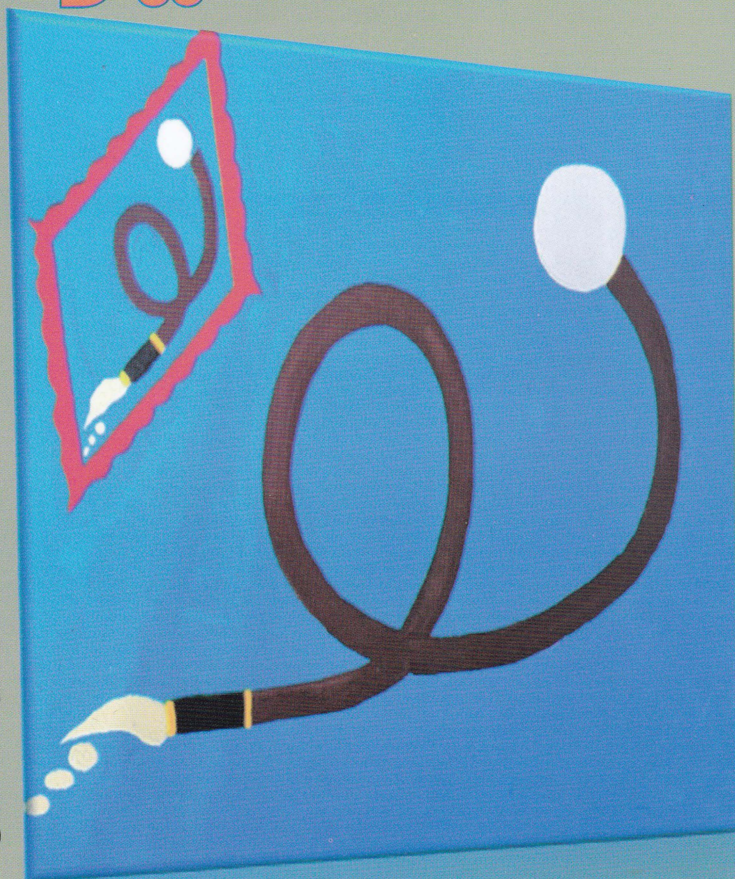
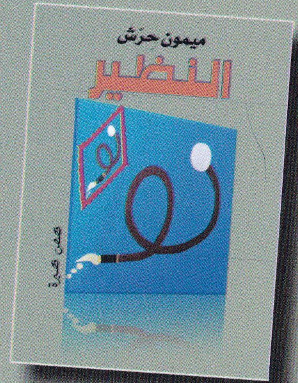
ميمون حِرْش

النظير



قصص قصيرة



للتواصل مع

ميمون حرش :

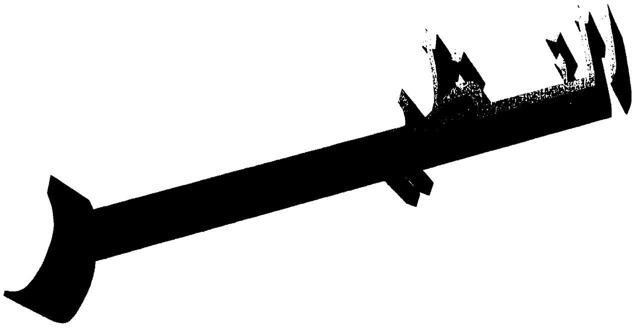
Hirche3@gmail.com

البريد العادي :

ص — ب رقم 142- الناظور

62000- المملكة المغربية.

ميمون حِرْش



قصص قصيرة

تقديم الدكتور : فريد أمعضشو

الكتاب: النظير

الكاتب: ميمون حرش

لوحة الغلاف :

الفنان التشكيلي، والشاعر ابراهيم عستوي

رقم الإيداع :

2014 MO 3756

ردمك :

978-9954-34-536-8

الطبعة الأولى: 1436/2015

مطابع الرباط نت



Av. Hassan II Cité Al Manar n° 6/3 - Rabat
05 37 20 46 32 - 06 61 20 37 76
imprimerierabatnet@gmail.com

إهداء

إلــى

أخــي..

المهندس بدر حرش

نجماً منيراً في سماء العائلة..

وشرياناً في قلبها..

"الإنسان ليس منه نسختان،
وأي بحث عن نظير له هو مجرد عبث.."

تقديم

-1-

"النظير" (أو الفنّان هج) هو عنْوانُ القصة الرابعة في هذه الأضْمُومة .. وهو نفسُه العنوان الذي ارتضاه القاصّ لعمله هذا .. وهي سيرةٌ يأتيها كثيرٌ من المُبْدِعين، في القصّة وفي غير القِصّة؛ بحيث يختارون وَسْم أعمالهم بعنوان أحدِ النّصوص الواردة داخلَها، لسببٍ مُقْنِع بالنسبة إليهم، سواء أكان متصلاً بطبيعة ذلك النصّ في حدِّ ذاته، أم بمكانته لدى المُبْدع، أو بغيرهما من الاعتبارات. ويبدو أنّ قصة "النظير" ذات مِيزاتٍ عديدة، تؤهِّلُها، فِعْلاً، لأَنْ يُسْتعارَ عنوانُها لتسْميةِ مجموعة الأستاذ ميمون حِرْش هذه كلِّها، وإنْ اقتصر على جُزئه الأوّل فقط .. ففِكرتُها – كما قالت الكاتبة العُمانيّة بدرية الشحي – خلاّقة أصيلة؛ إذ إنّها تحْكي "قصة فنان نحّات يعيشُ في عالَمه السّاحِر، ويتخيّلُ النجاح، رغم أنه داخليّاً مُقتنِعٌ بالفشَل، وبأنّ ما يصْنعُه من تماثيلَ ميتة يجعله مسْجوناً بالموت مِثلها! ومع هذا، يهاجمُ مُنتقِديه،

ويتجاهلُ سِجْنه وعالَمَه". ووَصَفت الشحي أسلوب القصة بأنه "حديث وواعِد". وبفضْل هذه المُقوِّمات الموضوعيّة والفنّية مجتمعةً، اختيرتْ قصّة "النظير" لتكون ضمنَ النصوص المُتوَّجة في مسابقة مجلة "العربي" الكويتية، المنظَّمة بالتعاوُن مع إذاعة "بي بي سي" العربية، خلالَ شتنبر 2012. وللقاصّ نصوصٌ أخرى حازت جوائزَ ذات قيمة أدبية لا تُنكَر، منها تلك التي مُنِحت له عن قصته القصيرة "نجمة البَحْر"، مؤخّراً، من قِبَل مؤسَّسة النور للثقافة والإعلام (بغداد)...

-2-

يُعْلن ميمون حرش بهذه الأضْمومَة عوْدَتَه إلى حِضْن "مَعْشوقته" الأدَبيّة، التي أحَبَّها منذ مَرْحَلة دراسته بالطوْر الثانوي، وقرَأ لكثيرينَ ممّنْ أبْدَعُوا فيها، على الصَّعيديْن العربيّ والعالميّ، وكانتْ له، هو أيضاً، مُحاوَلاتٌ فيها، مُنذ سنواتٍ بعيدة، عَرَفت – مع مُرور الزّمن – تطوُّراً ونُضْجاً وتميُّزاً .. وأقْصِدُ بمَعْشوقة الكاتِب، ها هُنا، القصة القصيرة؛ ذلك بأنّه بدأ حياتَه الإبْداعيّة بتَدْبيج أقاصيص في هذا اللّوْن التعْبيريّ الجَميل، توَّجَها، عامَ 2012، بإصْدار مجموعته

القصَصِيّة الأولى التي اختارَ لها عُنواناً "ريف الحسناء"، ونالتْ – مِنْ فَوْر ظهورها في مَشْهَدِنا الأدبيّ – اسْتِحْسانَ نقّادِ القصّة ومُحَلِّلِيها، الذين لَمَسُوا ما تميّزتْ به مِنْ فَرادَةٍ ومن ألْقٍ فنّي جعَلاهم يتنبّأون لصاحِبِها بمُستقبَل واعِدٍ جدّاً في مجال الكِتابة القصصيّة .. وهو تنبُّؤ صَدَّقتْه نصوصُه اللاّحِقة بالفِعْل. فبعْدَ "ريف الحَسْناء"، ارْتأى القاصّ خَوْضَ غِمار تجْربةِ الكتابة في لَوْن حِكائيّ جديد، يُثْبت بَعضُهم بُنُوتَه للقصة القصيرة، بأضمومته "نجيّ ليلتي" (2013)، التي التحقَ بها، عن جَدارةٍ، برَكْب كُتّاب الق ق ج. ورغمَ أنّها باكُورةُ إصْدارات حِرْش، في هذا النوْع القصصيّ الوَليد، فقد انْطَوَتْ نصوصُها على مَياسِمِ النُّضْج الفني والبَهاء الإبْداعيّ؛ كما يُسْتشَفّ منَ الكِتابات النقديّة حَوْلَها. إلاّ أن تيارَ القصة القصيرة كانَ أكثرَ جاذبيّةً لميمون حرش الذي سَرْعانَ ما أعْلَن أوْبَتَه إلى كتابة الأقصُوصة بإصْداره الثالثِ الذي بين يدَيْك.

-3-

يضمّ هذا الإصدارُ بين دفّتيْه خمس عشْرة (15) قصة قصيرة أو "كَبْسولة"؛ بتعبير الناقد نجيب العوفي، اسْتطاعَ

القاصّ، مِن خِلالها، التعبيرَ، ببراعةٍ فائقة، عن مظاهرَ وحالاتٍ وسُلوكات من صَميم الواقع المَعيش، وعن تجاربَ ونماذِج وعلاقاتٍ لا نجدُ أدْنى صُعوبة في الوُقوف على "مُعادِل مَوْضوعيّ" لها في حَياتِنا اليَوْميّة. وهذا ما يَجْعلُنا نَحْكُم، مُطْمَئنّين، على اتّجاه المجموعة الفني، وهو الواقعيّة؛ على غِرار نُصوص مَجْموعتيْه الأولَيَيْن. بل إنّ قصصاً كثيرةً من أعمال الأستاذ حِرْش لَتُعْلن عن انْضِوائها تحتَ لواء التيار الواقعيّ الانتقاديّ. وإنّ حُفولَ حرش بالموضوع الاجتماعي وما يتمَحَّضُ له لم يَكُنْ لِيَصُدّه عن كتابة قصصٍ للتعْبير، كُلاًّ أوبَعْضاً، عن آلامِ الذات وآمالِها، في ظلّ واقعٍ باعثٍ، في أكثر الأحايين، على التغَرُّب والتّبرُّم والتألُّم من جرّاء مُعاينَةِ جملةٍ من اختلالاتِه وأزماته وتناقضاتِه الصّارِخة. ولذا، كان حُضورُ تيمة الاغتِراب والحُزن قويّاً في عددٍ من قصص المَجْموعة. وبما أن كاتِبَنا "مثقّف عُضويّ" (بالمفهوم الغرامشي)، ومُبْدِع مُلتزِم (لا أقصد بالالتزام، هنا، معناه الدّينيّ)، يُهِمُّه أمْر أمّته، حاضراً ومُسْتقبَلاً، فقد كان لا مناصَ مِنْ أن يتطرّقَ، في بعْض أقاصيصه، إلى موْضوعاتٍ تتجاوَزُ إطاري الذات والواقع، في بُعْدَيْه المحلّي والقُطْري، لتُلامِسَ قضايا الأمّة

وشُؤونَها؛ كما في قصة "كشْف المَسْتور"، عن تفاعُلات "الرّبيع العربيّ" وتداعِياته ونتائجِه، وهي قصةٌ جميلة، وإنْ رانَ على أسْلوبها طابَعُ الحِوار الخارجيّ، وعلى لغتها طابَعُ التقرير، ولكنّها – مع ذلك – طافحةٌ بالسّرْديّة والعُمْق البلاغيّ.

-4-

علاوةً على ما ذكرْناه، تمتازُ قصصُ المجموعةِ بغِنى سِجلاّتها اللغوية والأسلوبية، وبتوظيفِ آليات فنية وبَلاغية عدة في نَسْج خُيوطها؛ مِنْ مِثل المُفارَقة والسُّخْرية والاخْتزال والإيحاء، وبضَغْطِ المُتخيَّل السَّرْدي على جملةٍ منها إلى حَدِّ الارْتقاء بها إلى أسْنى دَرَجات الجمال الإبْداعيّ، بل إنّ منها ما يَغْرَقُ في مُحيط الحُلم البَهيّ، دونَ أنْ تنقطِعَ صِلاتُه بالواقع قيْدَ أنْمُلة في الجَوْهر. وتمْتازُ، كذلكَ، بعناوينِها المُختارة، بعِنايةٍ فائقةٍ، لِتعْكسَ بُؤر القصص التي تُتَوّجُها، ولتُوحيَ بمَوْضوعها الرّئيس حتّى في الحالاتِ التي تَرِدُ، من الناحيّة البِنائية، على هَيْأة "عناوين شُخوصيّة"، تنهَضُ على تَبْئير الفاعل الأساس فيها. وهذه واحدةٌ من الزّوايا التي تظلّ حَرِيّةً بأنْ تُبْحَث في إبْداعات ميمون حرش بنيةً ودلالةً ومقْصَدِيةً.

-5-

إن الأستاذ حِرْش، بمَجْموعته "النظير"، يؤكّد رُسوخَ قدَمِه في الكتابة القصصيّة، وطنيّا وعرَبيّاً، وتمكُّنَه من إوالِيات هذه الكتابة وتِقنياتها، وانفتاحَه الواعي على ما اسْتجدّ منها، وقدْرَتَه على تطْويع القصة القصيرة لاسْتيعابِ موضوعاتٍ وإشْكالات كبيرة ومُلِحّة، لا تبْعُد عن الواقع الماثِل أمامَ الأعْيُن ولا عن هُموم الذات وتطلُّعاتها، وتناوُلها بالاتّكاء على لغةٍ وأسْلوبٍ متميّزين في الكتابة حقّاً... ولا يُخامِرُني شكّ في أن القارئ الكريمَ سيَلْمسُ هذه الأمور عَقِبَ قراءته قصصَ حِرْش المُضَمَّنة في هذه الأضمومة، وفي مجموعتيْه السابقتيْن أيْضا.

بقلم الدكتور فريد أمعضشو.

ج. العروي، في: 2014/8/7

"يا له من مسكين !.. ما له بتأليف قلوب
أهله يدان .."

الرجل البـومة

ما أكثر المفسـدين والمرجـفين في بلدته!..

أوغروا صدره ضد بلدته، فتركها غير آسـف! ويوم غادرها ذات شتاء، أقسم أن ينضاف إلى لائحة "خرج ولم يعد". ضرب في أرض الناس ،تطوح في بلدانهم مشرداً، طريداً .. بات جائعاً، التحف السماء واشتغل حمّالاً، ينوء تحت ثقل كل من يطلب خدماته. كان كبغل يلبي دون أن يحتج... سمع ممن حمل أثقالهم كلاماً جارحاً، ونابياً، وكان كل مرة يُسرّي وقاحتهم بتحسس جيوبه، وهو يسمع ما لا يرضيه .. تلك طريقته في الحفاظ على أعصابه باردة. كان يقول : " لا بأس.. تركت أهلي من أجل المال، فلا مندوحة لي عن الصبر إذاً "...

اليوم يعود من سفرته، وفي نفسه بعضٌ من أمل في أن يجد دنيا الأمكنة التي تركها قد تغيرت، وسكنها الأمل، وأن ساكنيها قد تلطفت نفوسهم...

حزّ في قلبه أمر واحد، وهو أنّ أن أخته لم تكن هناك! سأل عنها. قيل له إنها يوم غادر البلدة أصابتها حمى، أقعدتها الفراش أياماً، ظلت تهذي باسمه، ولما توسم الجيران فيها أمارات الشفاء، لم يعثروا لها على أثر. وآخرون زعموا أنهم رأوها في قبة ولي صالح، رافضةً عرض العودة... وقليلون منهم قالوا له بدون فلسفة: "خرجتْ ولم تعد"...

سمع من هؤلاء كل التفاصيل، وازداد اقتناعاً بأن لعنة الرحيل آلة حاصدة لا تني .. اقتلعت من الجذر أباه الذي هجر أمه، وتركها أرملة، دون أن يرى ولديْه التوأم أبداً .. وأمه ماتت (والموت آلة أخرى)، بعد أن شب هو وأخته عن الطوق.. وما من شيء سيوقف هذا الزحف أباً عن جد .. الأهل سيغادرون .. اليوم أو غداً .. لا بد من ذلك .. لا يهم إلى أين. إنما الأساس في ربيدة العائلة هو التيه...

أخته راحلة إذاً، تعقبت القارظيْن (الأب والأم)! كيف تجرؤ وتغيب؟ وأي سبب قوي حملها على مغادرة البلدة؟

كيف تغيب عنها، وهي المؤمنة بأن رائحة الأرض، مثل ما يدفن فيها، محفوظة محفوظة... يا للسخرية!

هو يوم عزم على الرحيل أبت أن تودعه، لكنها غنت له:

"يا الرّايَحْ وِينْ أمْسافَرْ..

ترُوحْ تَعْيا وَتْوَلِّي..

أشْحالْ مَنْ عباد الغافْلِينْ ندْمُو قبْلَكْ أُو قبْلِي.."

البيت خالٍ اليوم إلا من شجرة لبلاب لم تكمل التفافها من محْل وهجران. صارت الدار خربة، وأول ليلة يقضيها داخلها آنسته بومة كانت تأوي إليه كل يوم، يقول الجيران إنهم تعوّدوا، مُجْبَرين، على نعيبها، لكنها، يوم رجع صاحب البيت، نعبت مرة، ثم ارعوت كأنها تحتج على وجوده .. ومع مرور الأيام، سيألف كلاهما الآخر في النهاية...

في الأول، لم يعرف كيف يتأقلم في بيت ولد فيه دون أخته التوأم، لكن البومة كانت له سكناً، والطقس الذي تغير هو أنهما تبادلا الأدوار .. هو من أصبح "ينعب" ويصرخ بالليل لا البومة، فيما هي تظل الليل ترقبه...

في النهار يظل يسرح ماشياً كمن يكتشف البلدة لأول مرة .. شيء ما ليس عادياً فيها، لكنها لم تتغير مع ذلك ألبتّة إلا من صبية صغار، يتكاثرون يوماً بعد يوم، يملؤون فيها الزوايا، ينطّون، يرتعون. وحين يمر بهم لا يكره براءتهم، وإنما النزق الذي في داخلهم .. يتحولون إلى ما يشبه الفرقعات حين يرونه، يصرخون مشيرين إليه:

"إنه الرجل البومة!"..

في البداية، كره منهم ذلك، لكنه سيألفه منهم لاحقاً، إلا أن ما أمضّه كثيراً هو كيف ينظر إليه الكبار لا صغارهم. وحتى في بيت الله لا يسلم من حبائل نظراتهم، وبسبب البومة قاطعوه، قالوا إنه منحوس .. يجلب الشر والبلية، وكثيراً ما اتفقت "الجماعة" على التفكير في طريقةٍ لنفيه، لعلهم يجتثون اللعنة برحيله عن البلدة؛ لذلك أرصدوه مرات عدة، شَرَكاً لصيد بومته، إلا أنه في كل مرة يعود وفي حبائله الكثير من الأبوام، لا بومة واحدة.. حاول أن يتقرب من كل دار، وِهادها قبل قُننها، لكنْ دون جدوى .. ولم تزل نفسه في خطب وُدِّ أهل بلدته متوددة حتى اهتدى إلى أن يؤلّف قلوبهم عن

طريق مصاهرتهم. وليضمن قَبوله عريساً، اختار أن يخطب ابنة إمام البلدة...

ورغم أن عرف البلدة يعتبر أن مَنْ يتقدم للخطبة وحده، دون أهله، لا يعني ما يقول أبداً، ويعدون تصرفه طيشاً .. رغم كل ذلك، طرق باب الفقيه (هذا ما أكدته الجماعة فيما بعد) .. استقبله الفقيه يومها خارج البيت، ولم يدم حديثهما سوى لحظات .. قال له:

- أنت تحفظ كلام الله، وتقي ورع، فهل تقبلني - أنا اليتيم - زوجاً لابنتك المصون..؟

الفقيه، أو آخر، كان سيفرح لخِطب كهذا في زمن كف الناس فيه عن الزواج، لكن رده أذهله:

- "الجماعة" تقول إنك تزوجت البومة! فما حاجتك بالزواج إذاً؟ ثم بالنسبة إليك، في مثل حالك، ويل خير من ويلين!...

وبسبب البومة ظل بدون زوج .. الأيام من حوله دولاب .. وخط الشيب رأسه، واهتصرت السنون ظهره، كما مالت أغصان شجرة اللبلاب .. وكلما ازداد شيبه، جفت ورقة من

الشجرة، وامتلأ البيت بالبوم. ولأنها كثيرة، لم يستطع أن يجاريها في النعيب ليلا .. تغلبت عليه؛ فصَمَتَ مضطراً...

يا له من مسكين!.. ما له بتأليف قلوب أهله يدان؛ لذلك فكر في الرحيل مرة أخرى، دون نية العودة هذه المرة. ولقطع هذا الأمل، عزم على بيع بيته .. لكن هيهات .. لا أحد من المشترين رغب في ابتياع بيته، رغم زهد ثمنه .. لا أحد يفكر أن يهب نفسه للشر بيديه! من يجرؤ على اقتحام النحس؟!...

ليلةَ الرحيل، بدت البوم كما لو تغير شكلها .. رائيها قد يجزم بأنها تشبه أي شيء سوى شكل الطير .. بدت كما لو نفقت .. كفت عن النعيب. وهو، من جهته، وجدها فرصة سانحة لأن يصرخ بكلام أخير كما لو كان بصدد ترْك وصية .. ظل الليل يردد، والدمع يرفض من جفنيه:

"يا أهل الخرافات،

ويا صناع العاهات..

أنحس بومة أفضل من رؤوسكم مجتمعة!..

أضعتموني إذ قرنتم اسمي بنحس،

مع أن أشرفكم مجرد نِكس..."

وفي اليــوم المــوالي، بعــد صــلاة العصــر، عقــد الأهــالي العــزم على طـرد "الرجــل البومــة" مـن البلــدة، مهمـا كـان الثمن..

كان الرجل قد أغْلَسَ .

قصدوا بيته. في الطريق بدوا كأنهم يشيّعون ميتاً. كانوا يرددون: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"...

تجمهروا حيث يسكن. شكلوا دائرة حول البيت. حاصروه .. ارتفعت أصوات نشاز مصحوبة بمد أذرعٍ طويلةٍ بدت كمعاول تتناطح في الهواء .. الناس يتطاير الشرر من عيونهم، متأهّبون لتغيير المنكر!.. بحّت الحناجر، ونفد صبر الجميع .. ولم يفضل غير اقتحام البيت .. يتقدم كبيرهم محاولاً تكسير الباب، غير أنه يتراجع فجأة .. صمتٌ رهيب أعقب ذلك. انفتح الباب، وإذا بامرأة (على الأرجح هي أخت الرجل المطلوب) متّشِحةً بلباس أبيض تستقبلهم، وتقول لهم:

"كعادتكم .. لقد تأخرتم كثيراً!.."

2012/05/11

"حماري هو السباق إلى الوجود،
إذاً الأسبقية له أولاً.."

حماري أولاً، وأنت التالي..

في مدينتي، قبالة واجهات المحلات التجارية، ووسط أهم الشوارع، تتوزع عربات يجرها حمير لا تحمل أسفاراً، بل خضراً من كل الأنواع.. تسير في مجالات السيارات، لا يأبه أصحابها بقانون السير! الطرق هي مجال التحرك، ولا يهم لمن .. الأصوات مبحوحة، لكنها حادة، تنادي وتصرخ. وللأيدي مآرب كثيرة: منها عرض بضاعة للبيع، وحمل السوط في وجه الحمار، وأحياناً في وجوه الناس .. أصحاب العربات المجرورة أشبه بدلالي الأزمنة الغابرة، يُسمع صوتهم مع نهيق الحمير في تناغم عجيب..

الحمير تنهق، تكتسح الشوارع، ولا أحد يعرف القائد.. الحمار أم صاحبه...

يتحرك الناس بصعوبة. صاحب عربة يتصدر الطريق غير مكترث. يسد منفذ المرور. وبدل التنحي، أخذ يربت على ظهر حماره وسط أصوات منبهات السيارات التي وقفت في طابور طويل .. الصراخ من كل ناحية. كل واحد يحتج على من قبالته. الراجلون - وأنا واحد منهم - كانوا حلقة من هذه الصورة المتموجة في وقت الذروة..

الناسُ من حولي حَيارَى، أرجلهم تحملهم على إسفلت مغشوش، لا ينظرون فوق أبداً .. وأنا مأخوذ بما يحدث حولي، تناهى إلى سمعي صوت سائق سيارة يحتج بشدة على صاحب العربة التي صدت الطريق عليه:

- افسح المجال .. دعني أمر..

يجيبه صاحب العربة:

- الأسبقية لحماري، وأنت التالي..

يرد صاحب السيارة بغضب:

ما مَاشْ أيَغْيُورْ[1]؟!

- أيهما كان السباقَ للوجود: سيارتك أم حماري؟!

---

[1] - " أغيور" بالريفية تعني الحمار..

ودون أن ينتظر الجواب، أضاف:

- حماري هو السباق إلى الوجود. إذاً الأسبقية له أولاً، رغماً عنك..

قهقهت بهستيرية، والمارة من حولي غرقوا في ضحك لا لون له، كجمهور يُغصَب على التصفيق عنوة بإشارة من الكواليس .. الحمير وحدها في الشارع، كانت تنقاد لأصحابها دون حرن.

كنا - والحق يقال - مواطنين نَفر بضحكنا، من زماننا الحاضر للإبحار في محيط أزمان غيرنا .. نتوق إليها كأطفال يرتمون في أحضان أمهاتهم بعد طول غياب...

2011/8/15

"غص المكان بأناس "مخمليين".. لست منهم

.. لكني، مع ذلك، كنت حاضراً.."

"كانون"

كيف تصادف حضور الجميع في المكان نفسه؟!..

لعلها بركة الأماكن، فهي كفيلة بأن تسع الجميع دائماً (هذا ما تعلمته من أمي التي لم تعرف غير الخيمة والأرض والبئر وخدمة أبي، التي كانت تعتبرها بركة أخرى..). مسكينة أمي غاب عنها أن بعض الأماكن المخملية؛ نحو هذا الذي أوجد فيه الآن، لا تمنح بركتها إلا لمن تشرق شموس حساباتهم في البنك، ولا تسع إلا لمن يحمل دعوة في جيبه متأبطاً يد حسناء على طريقة مشاهير السينما الذين يحضرون حفل توزيع جوائز الأوسكار...

نقلت نظري في كل زوايا المكان. فعلت ذلك، وأنا أردد كلمة "البركة" رغْماً عني. لم يكن اسمي موجوداً أو مدوناً على

لافتات مكتوبة بعناية وموضوعة فوق طاولات يجلس حولها نساء ورجال يبدون راضين عن أنفسهم تمام الرضا.. الأنوار في المكان زادتهم رضًا وبركة...

أحمل على ظهري آلة تصوير رفيعة من نوع "كانون". أتمايل بها. عيناي الآن مثل عينيْ صقر تلتقطان عدداً لا يُحْصى من الصور. أرصد بهما كل صغيرة، وبالكاميرا كل كبيرة...

نسيت آلتي لبعض الوقت، وتظاهرت بإغماض عيني، فأرخيت أذني لالتقاط وشوشات مصحوبة بغمز ولمز .. كنتُ قريباً من طاولة، ورأيت كيف يحصل كل ذلك بأم عيني. كنت بينهم مثل ضائع يبحث عن أمه، رغم كبر سني، ومِراسي في حرفة التصوير!.. أصبتُ بدوار لِمَا رصدته عيني بين الجمع.. رأيت، وأنا أبحث عن لقطة أرْصدها وأصوّرها، ما سيعكر صفو خاطري طوال الليل..

كادأن يُغمى علي.. ولم يكترث لي أحد .. الجميع كان مشغولاً و حريصاً على رسميات عصية الخرق، الأضواء كانت قوية وحمراء.. حمراء جداً مثل نفسي حين لا ترضى.. ومثل رأسي حين يدور..

نفسي الآن لم ترضَ أن ترى في المكان حبيبة الأمس.. لم أبحث عنها .. ولكن القدر شاء أن نلتقي مرة أخرى بعد عقدين من الزمن..

ما زلت أتذكر كل شيء عنها وعني. يمكن أن أنسى بعض التفاصيل، لكن تقاسيم وجه أبيها، وهو يطردني من بيتهم، تتبدّى أمامي الآن كما الشيطان إزاء كل منكر!

يا إلهي، كيف لي أن أنسى آخر ما قاله لي يومها حين تقدمت لخطبة "ح"؟! .. في نهاية حوار طويل بدأناه بالرسميات، بادرني بالقول:

- اسمع يا بن الناس، ابنتي لن تكون من نصيبك..

وحين ركبتُ رأسي، عفواً رأس حبنا، وألححت في الطلب، قال لي بصرامة في اللقاء الثاني:

- ستفسد نسلي يا بني .. أنت مجرد "مصور"! وفي عُرْف عائلتنا، أنت مثل طبّال في الأعراس .. تتأبط أنت آلة، وهو بَنْدِيراً، وهذا هو الفرق بينكما!..

إهانة لم أستطع نسيانها، وأكثر ما أمضّني هو أنه كان يناديني بـ"ابني"! ..كان مثل الكلب الهادئ .. يجعلك تطمئن له أولاً ليبدأ في نهش لحمك..

ناداني أولاً "ابني"، ثم قال إني سأفسد نسله... الكلب استصغرني؛ لأني أسود اللون. خشي ربما أن يكون أولادي سود البَشرة من ابنته الشقراء..

النجم حين تستصغره الأبصار، فالذنب في ذلك للطرْف لا للنجم في الصغر كما كان يردد جدي الشاعر.. وأبوها الذي كان يرى الأشياء من حوله بجيوبه يكبر، في عينيه، أراذل الناس؛ لأنهم أغنياء، ويصغر الشرفاء؛ لأنهم فقراء..إنه قانون مَنْ يملك إزاء من لا يملك!..

حين رأيتها في هذا الحفل.. صحت هذه الذكرى في نفسي، وحطت فوق قلبي كصخرة ... بدتْ لي وسط صُوَيْحِباتها مثل حلم وقد اتخذت ملاءتها لون السماء في حال التهيؤ لتشتو بعد محْل..استدارت نحوي وهي تلوي عنقها بطريقة أعرفها جيداً .. فعلتْ ذلك، وتذكرتُ حديثها وإعجابها بعُنق مريم فخر الدين في فيلم "الحب الصامت" مع يحيى شاهين .. قلت لها يومها:

- أنتِ أحلى من مريم، وأجمل ما فيك عيناك لا عنقك..

اليوم .. بنفس العنق تزداد طولاً الآن .. وبنفس العينين ترمقني، أصبحت تستعمل عنقها في الظهور بالشكل الذي

تريده: "زوجة رجل مهم" .. ومثل ميدوزا في الأسطورة ترمق الحضور. إنها - ولا شك - صاحبة الحفل .. تنتقل بين الطاولات. تسلم على هذا، وتهمس في أذن أخرى .. وتلوح بيدها كيفما اتفق في جهات كثيرة..

يا إلهي، ما أكثر الهمس هنا!..

(يكثر الهمس في المناسبات الرسمية .. هو علامة على إيلاء القيمة مضاعفة للمهموس. وقد يكون تفكيراً بالهمس، بدل الصمت، لطرح جزئيات لا يصح أن تذكر علناً .. لطالما همستْ لي بالطريقة نفسها، ونحن نغرق في قبَل بريئة في أيام الآحاد..)

كانت ترمقني خلسة. وحين مرت بمحاذاتي تجاهلتني. كنت ما أزال واقفاً. لم أجلس على العموم طوال الحفل .. كان عليّ أن أقف.. أنا مصوِّر ومكلَّف من قبل جريدة إلكترونية لأخْذ صور حفل مخملي حضرته شخصيات وازنة ("وازنة" صفة جميلة لموصوف يزن كثيراً. ومردُّ ثقله إلى خبث طويته، وتعاظُم حساباته في البنك.. أنا الوحيد ربما الذي لم أكن وازناً بين الحاضرين.. فأنا مصور نحيل، وفوق ذلك أسود اللون، ومجرد "طبال": حسب أب من كانت يوماً حبيبتي..

أدرتُ لها ظهري. نظرتُ أمامي، حولي، في كل مكان.. انتبهت كأني أكتشف وجودي بين أناس من طينة أخرى! الجميع كان أنيقاً. الرجال حشوا أجسادهم المترهلة في بذلات من ماركات عالمية، ثمن طاقم واحد منها يحل عوز أسرة فقيرة لمدة سنة أو أكثر. والنساء!.. أثناء الرقص، كل واحدة منهن تبدو معلقة فوق كعبها العالي مثل شجرة مثمرة، وقد تدلت المجوهرات والحلي والأساور من كل مكان في الجسد، ليس للزينة طبعاً، وإنما لاستعراض الممتلكات في مثل هذه المناسبات.. لباس، وأناقة، ومساحيق توحي بأن الجميع هنا أصحاء تماماً، وراضون عن أنفسهم..أصحاء، لكنْ معطوبون من الداخل!.. هكذا كنت أراهُم..

حين كنت أتأمل هذه المفارقات،أيقظتني لمسةيد طرقت بحنوّ على كتفي.لم يكن الطارق غيرها .. بادرتني قائلة:

- مرحباً..
- (...)
- ملامح وجهك ذكّرتني، من بعيد، بشخص عزيز.. ياالله، كم يتشابه البشر!..

قلت:

- لا أحد يشبه أحداً .. هذا مجرد وهْم سيدتي..

أضفتُ،وأنا أستغرب كيف تغيرت، و كيف أثر الزمن فيها:

- الإنسان ليس منه نسختان!..

- هَمْ...

همهمت، ثم قالت لي بحدة:

- اتبعْني..

تبعتها، وفي زاوية توقفت، وأدارت نحوي، وقالت، وهي تعدّل من وشاح التفّ حول عنقها مثل أفعى:

- الحفل حضرته شخصيات، لها في الناس قوم وسمعة .. ونشر صورها بدون إذن منها قد يقطع رزقك !..

(يا إلهي..

بالأمس خافوا من أن أفسد نسلهم، واليوم يقلقون من أن أسيء إلى هذا النسل...)

- اطمئني سيدتي..

قلتها، وانصرفت، وأنا أستغرب من صَلَفها .. إنه الأسلوب نفسُه الذي به أنهتْ آخر لقاء بيننا في منزلهم وقت الإهانة الكبرى!..

في بيتي استعرضت أحداث الليل، وفوق سريري آلة "كانون" مكللة ومتوّجة كعروس، في ذاكرتها عدد لا يحصى من الصور عن شخصيات الحفل، لكن في جعبتي أنا صورة واحدة لا غير، لن تنفع معها تقنية "الفوتوشوب" الحديثة من أجل تجميلها أو تغييرها .. تلك هي صورة البذخ، وما طرحه الضيوف من فضلات بعد انقضاء الحفل...

2012/01/11

"لا أحب أن أصحو، وحين أفعل مرغماً
أحسب الواقع حلماً،
ولا تصفو نفسي إلا في نير هواجسي..."

النظير أو الفنان "هج"

أقحمت نفسي وسط جمع لا أعرف منهم أحداً. أغروني بطريقة تدافعهم واقتحامهم البابَ. انتحيت مكانًا توسّمت فيه ألفة بين لوحات فنية زيتية. الرواد من حولي يتأملون أشكالها على نحْوٍ مُريب. تبدو لي عيونهم قد علت حواجبهم، وأن كل ما فيهم، لولا العيون، ما كانت لتقوم لهم قائمة، بل لولاها ما كانوا ليشبهوا البشر أبداً.. اللوحات بعضها معلق، وأخرى تلامس الأرض، وبين هذه وتلك منها ما لا يستحق الإطار الذي وضعت فيه.. لم أكن ناقداً، ولكني أنقل انطباعاً داخلياً، وحدسي لم يخذلني يوماً...

* "النظير"، أو "الفنان هج"، واحدة من القصص الخمس الفائزة في مسابقة (قصص على الهواء)، ضمن مشروع مجلة "العربي" الكويتية للقصة القصيرة بشراكة مع إذاعة BBC العربية، العدد 646، سبتمبر 2012. (نالت الجائزة الثالثة)..

غريب وسطهم، لكن غربتي - مهما كانت شاملة - لا تضاهي غربة تمثال منحوت مَرْمي في زاوية. اقتربت منه. سلمت عليه سراً. لمست عينيه المتحجرتين، وقلت له بلا صوت: "أنت نسيبي، أنا مثلك تماما، غ...!"..

كلمة "غريب" همست بها في أذنه..

ضحكت من نفسي حين انتفضت لبعض الظن الذي أملى عليّ أن هناك من يترصّدني، بل ويسمعني. وإن لم يكن، فهناك حتماً من يقرأ أفكاري..

تتطلع إلي الأنظار؛ فأزداد خجلاً. فكرت: "لو يفصح الإنسان عما يفكر فيه علناً لأُثيرت فضائح، وقد ينبذه الناس"..

أقف مشدوهاً، وأتخيل أشياء وأشياء .. التمثال المنحوت بدا لي يتململ. كان أيضاً مثلهم، يترصدني، إنه يتحرك. يرفع يده. يومئ بها. يتقصّدني أنا تحديداً .. ما أجمل أن يهتم بك تمثال!.. لكن .. لحظة.. ما هذا؟.. إنه لا يتحرك كما ظننت، بل رأسي أحس به ثقيلاً، وهي ربما تهيؤات.. إنها فعلاً هواجسُ، عانيت منها منذ صغري؛ كلما ثقل رأسي من أكلة هاض بطني، وتنملت عيناي، وبِت أرى أشياء لا وجود لها .. لكن هذه

المرة يحصل شيء مختلف .. التمثال يتحرك فعلاً، وعيناي لم تتنملا، وأنا اليوم لم آكل لقمة واحدة؛ مما يعني انتفاء سبب وجيه لهذا الفيلم الهيتشكوكي .. وسأتأكد تماماً من هواجسي حين مال إلي أحدهم قائلاً: "هج" يريدك، وذكرك بالاسم"..

انتفضت، وصرخت بذهول:

- عفواً سيدي..
- "هج" يريدك! ألا تسمع نداءه..
- وكيف عرفتَ أني المقصود؟ .. ثم أنا هو "هج" .. وإذا كان هنا غيري من يحمل هذا الاسم فهي صدفة لاغيْرُ، لكن كيف يعرف اسمي؟!

لم يُجبني. إنما الجواب سيأتيني من غادة جميلة، وقفت بين الجمع، وقالت:

"التمثال"هج" يرحّب بكم، وأريدكم آذاناً مُصْغية لخطبته المسائية"..

هذه المرة لم يتحرك غيره، والناس من حوله موميات، أنا الوحيد بينهم عبارة عن كتلة من اللحم .. و ربماالعكس تماماً..

تكلم التمثال، وقال :

"أيها الأودّاء، هذا المساء مختلف تماماً .. لأول مرة يزور المعرضَ من أتوسّم فيه بعضاً من ذاتي .. إنه بينكم .. إنه نظيري، غريب مثلي، ونسيبي كما همس لي منذ قليل..".

قال ذلك، ونظر إليّ دون أن يشير .. "يا إلهي، إنه يقصدني.. هل أنا نظير؟! ولتمثال..؟!"

الصمت يلفني من الداخل، أما الخارج فإطار أنا فيه مجرد جثة محاطة بكائنات غريبة، أصرخ في وجوهها، ولا يُسمع صوتي. لم تصدر عن الحاضرين ولو همسة حين حركت يدي في كل الاتجاهات. كنت أريد أن أثيرهم، لكنهم هم من أثاروني حين وضعوا أيديهم على قلوبهم، وهم يستمعون لـ"هج". بدا لي أن المكان المناسب لوضع أيديهم عليه هو الرؤوس لا القلوب، في هذا الموقف على الأقل. أضع نيابةً عنهم يدي فوق رأسي؛ فأبدو كمن يجلس الحِبى بالمقلوب. ما يزال رأسي ثقيلاً مع ذلك، وقلبي أتحسّسه؛ فتذهلني دقاته التي تتالى كلما تأملت التمثال الذي ما زال يسترسل في خطبته، لم يبرح مكانه، لكن حركة الحاضرين توقفت تماماً، وكل ما في الجمع هو هيئتهم، وهم يصيخون السمع لما يقول باهتمام بالغ!..

يسترسل "هج" في كلامه: "أنا اليوم تَئِق و نظيري بينكم مَئِق؛ ويبدو أننا - لا اليوم ولا غداً- لن نتفق .. هو سيظل تحت، وأنا دوماً فوق..."!

صمت هنيهة، فأضاف دون أن يتحرك:

"إن خالقي - مهما أوتي من مهارة فنية - فإنه لم يفلح في أن يوحد بين نقط الاختلاف بيننا .. لذلك لن أقدم لكم نظيري اليوم، ولكني سأفعل لاحقاً حين ستتحاذى روحانا، في الفِعال، حذو النعال. وفي انتظار هذا اليوم، فليكن سعيكم شتى .. الشيخ منكم قبل الفتى"..

ستغرق القاعة في تصفيق حار على كلمات "هج" الأخيرة. أرى الأيدي فقط تحتك. ورغم أن كل واحد من الحاضرين يوقع بالبنان على البنان، لكني لا أسمع أصواتاً مع ذلك، بل لا أرى أحداً غيري في المكان، و حتى التمثال لا وجود له!.. أنا فقط لا غير، أجلس، كعادتي، في مكان موحش اعتدت عليه، محاطاً بلوحات تحيرني، وأصباغ تلطخ داخلي أكثر مما تلطخ ما أرسمه دون أن أتمه أبداً. كلما جلستُ لأرسم "أم لوحاتي"، أحلم بأني فنان ناجح يقيم معرضاً يزوره الرواد، ويثنون عليه؛ فتناديني الأصوات من الداخل، ويتهافت أصحابها على

شراء لوحاتي. أراهم يخطبون ودّي، ويسعدهم توقيعي الذي يعلي من شأني قبل شأنهم؛ ولهذا العلو سيعلق المعجبون لوحاتي في صالوناتهم. قد يختلفون في شرح تيماتها، لكن حتماً سيتفقون حول اسمي وبراعتي وألمعيتي .. هكذا أقضي يومي كما العريس، وسط لوحاتي . أستمتع بحرارة اللقاء مع روادي، كلما غشي فكري أوهام أستمرئها... وأظل أحلم وأتخيل، وحين أصحو للحظاتٍ فقط أكره واقعي، وأتفل على لوحاتي التي لا يعرفها أحد، وألعن وحدتي، ولا أجد حولي أحداً من زواري، وأقتنع - على مضض - بأنهم موجودون في مخيّلتي فقط ! وهناك في ذاكرة الموتى، أتخيل كثرتهم، أستقبلهم بصفاء، أحس بهم، أحاورهم، لكني أفتقدهم في الصحو رغم كثرتهم!..

"هم موجودون فقط في مخيلتي..."

يا إلهي، إنها الحقيقة، لكني أرفض التسليم بها؛ لأن الصفاء الذي يجتاحني، بسبب وجودهم، يريحني كلما أثنوا على رسوماتي، وتهيّجني مجرد ملاحظةٍ منهم مهما كانت بسيطة لا تنتقص مني فقط، بل من كل فنان، سأكتب يوماً في وصيتي (ليس مُهماً لِمَنْ): "إن الحلم هو ما ينقصنا في زمن فيه هاتف نقال وحاسوب..."

لا أحب أن أصحو! وحين أفعل مرغماً أحسب الواقع حلماً، ولا تصفو نفسي إلا في نير هواجسي. أعُدُّ نفسي فناناً يعرفه القاصي والداني، لكن ما سيحصل لي هذا الصباح سيغير أشياء كثيرة من مجرى حياتي .. سأهتاج لِما ورد في صفحتي الخاصة في الفيسبوك .. قرأت فيها الخبر الآتي:

"الفنان العظيم "هج"، ستكون ضيفنا، ندعوك لحضور حفل بهيج نقيمه على شرفك، سنسلمك جائزةَ أسوإِ لوحةٍ فنية ترسمها هذا العام!.."

لم يشغلني السؤال عن الجهة التي تقف وراء الدعوة، ولكن الذي يسبق هذا؛ لأنه الأهم: هو اعتبار أصحابها مجرد حثالة، أوباش، يغارون مني .. ودعوتهم، في النهاية، وإن كانت تضمر مذمّة، فهي من ناقص لكامل..

سأقضي يومي مثل ثور، أضرب أخماساً لأسداس .. الرسالة نصب عيني مثل ملاءة حمراء .. أقرؤها، وأعيد قراءتها، وكل مرة أزداد اقتناعاً بأني لست المقصود بها ألبتة، بل "هج" الآخر...

2012/4/17

"استفزته العبارة المكتوبة.. ربما لإحساسه بأنه مختلف عن الآخرين من إعاقة ما.. قد تكون داخلية رغم ثرائه."

رجـل عاقل جداً

متسربلاً ببذلة أنيقة، يمشي الخيلاء، يبدو واثقاً بنفسه ومن تحرره.. يدخل مقهى فخمة، داخلها فضاء ليلة حكتها شهرزاد، لكنْ ليس لشهريار.. أرضها سماؤها، وصبحها مساؤها .. روادها، وهو واحد منهم، من طينة من يمشي على الأرض، وقطع قطن تسد أنوفهم..

يستقبله النادل بابتسامة صافية. يتجاهله، ويقصد طاولة. يعدل من ربطة عنقه، دون أن ينظر إلى أحد. وبحركات محسوبة سار كمشاهير الفن السابع على بساط أحمر، حرَص على أن يثبّت قدميه فوقه. الحذاء وسُمْك البساط كانا كفيلين بأنْ يجعلاه يترنح كبطة.. وبنفس تهاديها، خلع الحذاء، فوضعه فوق طاولة. يرغب عن الكرسي

المخملي، ويجلس القرفصاء (الوضع الذي يحبّ)... وسط المقهى بدا كمَنْ يمارس رياضة اليوغا على نحو مضحك (كان هناك من يضحك فعلاً) .. ثم يفرد جريدة الصباح، ويقرأ كل الصفحات دون أن يكترث للعيون التي ظلت ترقبه باندهاش، وعلى الألسن سؤال محير: مجنون أم يتصنع الجنون؟!..

...

في اليوم الموالي، كان في أبهى صورة. قصد المقهى نفسه، وبصلفه المعتاد يدخل، ولأول مرة ينتبه إلى عبارة مكتوبة بخط مضغوط عليه: "يُمنع الدخول على الكلاب والمعوقين"، في إطار أنيق كلوحة فنية نادرة. قرأ العبارة بصوت مسموع، وأعاد القراءة مرات عدة أثار بها انتباه كل من كان في المقهى .. بعضهم ظل يحملق فيه بذهول، وآخرون نظروا حيث كان ينظر .. وجزء ثالث بدوا غرباء ليس عنه، بل عن أنفسهم..

لم يكن معنياً ما دام لا يصحب معه أي حيوان .. ومع ذلك استفزته العبارة(ربما لإحساسه بأنه مختلف عن الآخرين من إعاقة ما .. قد تكون داخلية رغم ثرائه..)..

يخلع نعليه كما العادة، لكنه لم يقرفص هذه المرة، وإنما ظل واقفاً، يتأمل الشارع من خلال مرايا خاصة، تُظهر الجالسين داخل المقهى كما لو كانوا خارجها .. في يده سيجارته، وعلى الطاولة حذاؤه .. لم يقرأ جريدته هذا الصباح. بدتْ والحذاء فوق طاولته كسلعتين معروضتين للمزاد العلني، وهو إلى جانب أشيائه بدا أشد حيرةً من ضب، الخارج هو ما يشغله الآن .. رأسه الصغير يحمله عنق مطاطي يلتاع في كل الاتجاهات، باحثاً عمّا لا يدري.. بل يدري ما دامت نظراته مصوّبة نحو سيارته الفارهة..

في الخارج، كانت سيارته مركونة كما العروس .. لونها شفاف، وشكلها كبير، لكنْ جميل وأخاذ، من حولها سيارات كثيرة مبعثرة كحبات الحمص في أعراس الفقراء... ينتفض فجأة كمن رُشّ بماء بارد، يفرك عينيه، ثم يتأمل غادة حسناء أشبه بـ"كاترين دونوف"، استتلت كلباً أصغر من جوزل، ليس حسنها ما أثاره، وإنما كلبها، وسيارتها المركونة وراء سيارته مباشرة. زفر حين رأى الكلب ينط فوق سيارته، ولما بدا له كأنه يبول على عجلتها الأمامية صرخ:

- "كيف تجرؤ.. أيها الوسخ .."

قالها بانفعال، ثم نزا نَزَوان الجراد، وخرج من المقهى مندفعاً كهاربٍ حافيَ القدمين، والبساط الأحمر، الذي استهواه في أثناء دخوله، تغير لونه في نظره. كان كل همِّه أنْ يتأكد مِنْ أن سيارته في أمان، وأن كلب الحسناء لم يبل عليها..

يحمل نفسه، ينفض مِذرويْه وهو يخرج، وككرة يستقر في مرمى الخارج .. (سيعود إلى الداخل وهو يضرب أصْدَرَيْه)..

سيارته في أمان، والكلب لا أثرَ له، والحسناء صاحبة الكلب كانت داخل المقهى لا خارجها، وراء طاولته مباشرة .. كانت منشغلة بحديث مهموس في هاتف نقال مخملي، بينما كلبُها، بعيداً عنها، كان يلعق حذاء الرجل...

2012/05/01

"ظلت تحملق في ديكور أنثوي، لو رأته شهرزاد لجزمت أن ما ينقص لياليها هو بعض من بذخ آمنة.."

عـرافة المـوضة

خرجت آمنة من حمامها دافئة، منتشية.. إنها، الليلةَ، مدعوة لحفل زفاف ابنة عمتها. ستكون ضيفة شرف، بل وصيفة لعروس عزيزة في حفل مخملي أسطوري..

الحمّام الخطوة الأولى للاستعداد، تلته رياضة تمطيط تجاعيد الوجه. ولتبدو في أحسن صورة، فتحت دولاب مساحيق، وجلست على كرسي صغير قبالة مرآةٍ ما كذبت على أحد أبداً.. أمامها أنواع من البودرة، والمراهم، والبخور، والعطور .. تحفظ دور كل ماكياج؛ فتقبل على كل نوع منه حسب الدور بحماس شديد، ومع كل استعمال تحملق في المرآة كأنها تحتج على صراحتها كلما أظهرت وجهها على حقيقته.. حدسها لا يخطئ دور كل مسحوق. فالترتيب مهم في الحفاظ على الجمال، وأي فوضى قد تأتي بنتيجة عكسية

تماماً. ثم إن حفظ التناسق مَلكة، واستعمال الماكياج بوعي مهارة .. هي تعرف كل هذا، بل وتسرف في دقة استعمالها...

عكست المِرآة آمنة كنملة وهي "تعمل". شعرها القليل مقصوص على شكل coupe cheval .. التسريحة مناسبة لشكل رأسها الصغير، تبدو بها كما لو كانت في الثلاثين .. خداها متورّدان بدون دم، وعيناها قصير ما بينهما، وجبهتها مركونة هناك، وسطهما، كما لو كانت في زحمة.. فمُها أطول من فم النجمة "صوفيا لورين" .. ولأنه طويل جداً، فهي حريصة على اختيار أحمر الشفاه اللائق به .. وكل مرة لا تستقر على لون واحد إلا بعد أن تجرّب العشرات، وهي لسبب لا تدريه، أو لا تريد أن تدريه، غير مكترثة بأن كثرة التجريب، التي تقدم عليها كل مرة، تُسْهم، عوض تجميل هذا الفم المُشْكلة، في تمطيطه وتشويهه .. ولأنها متقدمة في السن، فهي أحْرَصُ على الدقة في استعمال كل بودرة ماكياج بمهارة عالية.. الترهُّل عدوها، وشد الوجه والماكياج والظهور بما يليق حربٌ تدخلها بثقة..

قامت مِنْ على كرسيها. دارت عدة دورات،وعيناها جاحظتان في مرآتها .. انتهت الآن من الماكياج، ولا بد من ثوب يناسب لون كل بودرة لطّخت بها وجهها. لم تكن لتعْدم

وسيلة في ذلك ما دامت ثرية؛ فمن أجل جمالها لها في بلاد الناس سفرات ورفيقات.. ومع كل سفرة تجلب من فرنسا تحديداً كل ما تحتاج إليه.. في دواليبها ألبسة من ماركات عالمية، وبتوقيع أشهر المصممين، فضلاً عن أحذية عالية الكعب خاصة لكل لون.. وبحكم التجربة، فهي تعرف ما يناسب من الأثواب، وما لا يليق لهذه المناسبة أوتلك.. تعدّ ذلك نوعاً من الثقافة، بل ويطلق عليها من يعرفها، على سبيل النكتة، "عرّافة الموضة"..

ولأن العرس استثنائي، فقد حارت بعض الشيء في نوع الفستان الذي يليق بالمناسبة. فبعد أن استقرت على التقليدي، غيرت رأيها فجأة.. ساخرة مدت لسانها لصورتها في المرآة بطريقة فيلمية.. هذه حالها في كل مناسبة يحضرها مدعوون لا تعرفهم..

حائرة .. حائرة...

يرنّ هاتفها النقال. صديقتها في الخارج تستعجلها .. لم تلبِّ، لكنها دعت صديقتها عبر رسالة الإسميس SMS للصعود إلى الشقة للحظات فقط .. (بغيتها كانت أن تستشيرها).

آمنة لم تجهز في الوقت المناسب أبداً، ويبدو أنه الديدن نفسه عند تلبية دعوات كل الأثرياء .. وصديقتها التي تتجاوز

عن أفعالها الرعناء دائماً، بحكم الرفقة، تجاهلت رنات هاتفها، وحشت نفسها في المصعد، دون أن تكلف نفسها قراءة الرسالة... وبعد لحظات، كانت داخل الشقة...

تبادرها بالقول:

- هَلُو عزيزتي، كل هذا الوقت ولم تجهزي بعد..؟!

- التميز، يا صديقتي، يحتاج دائماً بعضَ الوقت..

أضافت آمنة:

- طيب أشيري علي... أنا حائرة بين فستانين .. إليك هذا الكاكي العصري، وهذا الخمري التقليدي .. ما رأيك؟ هه..

قالت ذلك، وهي تشير إليهما في دولابها..

نظرت الصديقة حيث أشارت، لكن ما أثارها لا الثوبان، وإنما هو كثرة الفساتين التي ترفل إلى جانبهما.. نقلت نظرها في ديكور الصالة .. أمامها سوبير ماركت منزلي بامتياز .. لم تكن أول مرة ترى ذلك. إنما حيرتها في كثرة ما ترى، وكيف يزداد يوماً عن يوم، ككرة ثلج! ظلت تحملق في ديكور أنثوي، لو رأته شهرزاد لجزمت أن ما ينقص لياليها هو بعض من بذخ آمنة.. أحذية عجيبة، وأحزمة رفيعة، وفساتين شتى، على مقربة منها أوشحة، ومناديل العنق .. وفي أماكن مختارة بدقة، ترفل

حقائب لليد تبدو كما لو كانت تستغيث من إهمال... أثر الذوق في ترتيب كل ذلك لا يغيب عن أحد، كما لا يخفى البذخ على ذي عينين، ولو كان بهما عمش أو قذى..

حيرة آمنة بين الفستانيْن لم تعِرْها الصديقة أي اهتمام، ما دامت تؤمن بأن البذخ دائماً يزيد في جرعة الحيرة لدى من يلهيهم التفاخر بما يملكون..

كانت مأخوذة بما ترى، ولم تكترث لآمنة حين كررت السؤال (هي تعرف أنها ستظل تثرثر به، وفي النهاية ستركب رأسها..).

قالت لها متحسرة (لم تعد تعرف كم مرة تسجل هذه الملاحظة):

- تعرفين آمنة؟ .. ما ينقص هذا الديكور هو وجود كتابا..

وآمنة تضحك بهستيرية، وترد...

- كم أنت عنيدة .. ألا تملّين من هذا الكلام .. **وما جدوى** الكتاب؟ ثم ألم تسمعي باختراع اسمُه الأنترنت؟ .. **ألا ترين** الحاسوب هناك !..

أشارت إليه، وأضافت:

- انظري إليه .. إنه يضاهي كل كتب العالم، واطلبي أي كتاب "وشَبِّيكْ لبّيكْ" يوفره لك "الشيخ غوغل"بمجرد نقرة واحدة..

- أنا أقصد أن بيتك لا تنقصه غير مكتبة! إن لها حلاوة خاصة، رغم وجود الحاسوب..

تضحك آمنة مرة أخرى، وتدور حيث مرآتها، وتنشغل بإعادة أحمر الشفاه الذي أفسده الضحك (ليس هناك ما يعكر صفوها أكثر من فمها)، ثم يستقر رأيها على فستان ثالث لم يكن في الحسبان. ارتدته وهي ما تزال تضحك..

ظلت تضحك حتى وهي في العرس، وبحسرة حقيقية كانت ترمق المدعوين وهم يتأبطون هداياهم .. طريقة تقديمهم لها تستفزها دائماً .. تعدها، بالشكل الذي تتم بها، كلاسيكية وبدوية. هي لا تكره الهدايا، بل تحب أن تهديها، كما تحب أن تُهدى لها رغم ثرائها .. غير أن طريقة التقديم عند بعضهم لم تكن تستهويها ألبتة..

في مناسبات عدة، طالما علقت على هذا الأمر. كانت تكرر دوماً لمن ترتاح له أو لها:

"الهدية .. إذا لم تترك أثرها كما الحريق، لا جدوى منها .. وأثرها في أن تسبق حضور صاحبها بمدة .. قبل المناسبة بيوم

على الأقل، يجب على الناس أن يبعثوا بهداياهم، لا أن يتأبطوها في الوقت الميت؛ حسب تعبير معلقي كرة القدم.."

العروس إلى جانبها مبتسمة، لكن متوترة .. ابنة خالها آمنة لا تمل من الضحك، ومن الحديث عن بنود الإتيكيت دون أن تكلف نفسها مراعاته في مواقف كثيرة. ومثل سكّير ثَمِل، أطلقت العنان للسانها، وضغطت على زوادة قهقهة مدوية حين لمحت سيدة سمينة مقبلة تجاه العروس، مترنحة، وهي تتأبط علبة كبيرة مزمّلة بنفس لون الفستان الذي ارتدته، وستتحول سقطتها فوق هديتها، متعثرة بسبب كعبها العالي، إلى لقطة سينمائية نادرة التقطتها أعين كل من كان قريباً منها.. تناثرت هديتها، التي كانت تحمل بزهو، بفعل قوة العثرة، وانكشف نوعها، كما الصبح، لذوي عيون .. كانت عبارة، عن رزمة فوطات كثيرة، بينها ثلاث علب نادرة من "أولويز". ولما لم تتمالك آمنة نفسها من الضحك، قرصتها العروس أنِ انتبهي .. وآمنة ستسري عُتبها بقولها:

- هديتك جلبتها لك من فرنسا. متميزة كجمالك ..لا..؟

سيمضي على العرس وقت (مدة شهر العسل)، ولتسافر آمنة، وتمكث في باريس المدة نفسها. وهناك في عاصمة

الأنوار، خلال قيامها بجولاتها المسائية، كانت تكتفي بالابتسامة دون الضحك..

الضحك مؤجّل إلى حين عودتها إلى الديار .. طبائع الناس هنا تفتح الشهية لكل شيء، ولأي شيء..

إنها الآن عائدة وغانمة..

وفي باريس كانت قد حسمت أمرها مع الصديقة وملاحظتها المملّة حول الكتب .. من "مكتبة مازارين" في مدينة الأنوار ستجلب معها كتابيْن؛ الأول عنوانُه "تأخير الشيخوخة عن طريق الماكياج":

(Retarder la vieillesse à travers le maquillage)، والثاني "الماكياج إكسير الحياة": (Le maquillage : Elixir de la vie).

2012/6/29

"ما نحتاجه، يا أصيحابي، ليس الحار
الذي في الفلفل ..
إنما بعض بهارات الرجولة في مواقف حارة
فعلاً "..

حِرّيـــف..

يشمّر عن يد وأيْد، ويقف وقفة من يحسم أمراً جللاً. قامته طويلة. يده اليمنى، التي يرفعها كيفما اتفق، أكبر من اليسرى. شكلها يمنحه هيئة إنسان آلي في فيلم كارتوني .. في عينيه طاقة ما، والهدوء الذي كان يشع منهما حين يرمق بائع الحي سيفاجئ الجميع .. كان في المكان أكثر من زبون سيشهد على الموقف .. هم شركاء في حمل القفة، لكنهم مختلفون في طريقة ملئها، وكذلك تأبُّطها.. وكشرطي مرور يشير "حِرِّيف" (هذا هو اسمه)، بيديه الطويلتين، إلى رزمة من الفلفل الحار، ويقول لصاحب المحل:

"كيف تجرؤ أ وَلْد لَحْرامْ؟ .. تبيعني فلفلاً مغشوشاً، ماشِي "حار"، ..حرام..!"

وكلقطة بوز، تحول المشهد إلى صورة غير متموجة .. صاحب المحل بدا مخيفاً وهو يمسك صنجة الميزان، رازه الجميع بحذر، ولسبب وجيه، بالنسبة إليه على الأقل، سيحمل حفنة من الفلفل المختلف لونه، ثم يُلقي بها خارج المحل أمام ذهول الكل .. كان ذلك، على ما يبدو، هو رده على "حريف"، دون أن ينبس ببيضاء ولا سوداء..

عجيبٌ أمر "كُحَل الرّاسْ"!..

هل أراد أن يستفزه، أم هي محاولة شبيهة لما يفعله السحرة حين يبغون لفت النظر إلى غير الجهة المعنية؟..

وسأعرف لاحقاً، نقلاً عن صاحب المحل نفسه، أن "حريف" لا يمل من شكايته تلك، رغم أنه لم يشتر من عنده الفلفل الحار إلا مرة واحدة لا غير، والصدفة وحدها هي التي ستوحي للبائع بالحل .. طريقة رمي الفلفل خارجاً اهتدى إليها بعد أن كف "حريف" مباشرة عن الصراخ والكلام معه .. ولما أتت أُكلها بات يكررها، و"حريف" كل مرة يلتقط الفلفل ويمضي..

يخرج كل مرة يجر يده اليمنى، يعبس ولا ينبس .. يختفي يوماً، يومين، وربما أكثر، ثم يعود ليحتج بعبارته الأثيرة: "ماشِي حار.. حْرام..."

"فلفل ماشي حار"..

فكرتُ:

"في زمن موسوم بالحار، يتخلى الفلفل عن جلده نكاية، وربما احتجاجاً.. فما ذنب البائع؟..

ثم ما يضير فلفلاً "طْلَعْ" غير حارّ من تربة احتضنت الحرّ، فأنبتت خلافه؟!.."

إنه مشهد عصيٌّ عليَّ نسيانه .. تتبّعته، يومها، باهتمام كمن يشاهد فيلماً بوليسياً إلى النهاية، وما تزال هيئة "حريف" راسخة في ذهني .. تتراقص أمام عيني، يده اليمنى تحديداً تفرض علي نفسها كلما رأيت فلفلاً حاراً متوّجاً وسط مائدة..

"حريف" ليس سوياً، وكل شباب الحي يشفقون عليه! ولأن الزمن عضّه بنابه، لم يكن "پوفري"[1] يستمرئ أكْلاً يخلو من حرّيف...

---

[1]- "پوفري" كلمة إسبانية : مسكين..

يومها، في المحل، كان يجب أن أقول لـ"حريف"، ولصاحب المحل، ولكل من كان حاضراً:

"ما نحتاجه، يا أصيحابي، ليس الحار الذي في الفلفل .. إنما بعض بهارات الرجولة في مواقف حارة فعلاً".

مواقف حارة..

ما أكثرها فعلاً!

ومنذ حادثة "حريف" (يجب أن أعترف بهذا)، بدأت أشتري فلفلاً حاراً، وما همّني إن كان غير حار .. لكني كلَّ مرة ألوم نفسي؛ لأني موظف بسيط ينقصه الحار في بلاد حارة جداً.

2012/6/17

"لياليَّ نابغية، أستمرئ فيها سهادي،
وأنتظر ما لا أعرف... لذلك، أفكر بجدٍّ في
أن أغادر هذا المكان، وأمضي..."

غداً .. ألحق بكم أيها المنتحرون

الليلُ، كلما مد أطنابه وأصماني بسهمه، أحاول، دون جدوى، أن أتصالح معه، ولكنه يصر، من جهته، كلّ مرة، على أن يتحدّاني؛ فينام "على جفوني"، ويجفوني..

نصحني الأطباء، الذين زُرْتُهم، بالرياضة، وبشرْب كوب حليب ساخن كما الأطفال، وبطرد الوساوس قبل النوم..

"هراء!.. من يجرؤ على طرد وساوس الحوب في زمن العولمة و اليوتيُوب..."

التيه في بلاد الناس تكفّل بالرياضة، أما الحليب (يا للسائل الأبيض!) فلقد حرّج الزمن عليّ أن أكتفي بما رضعته من أمي وللحق أقول: لم أجرّبه كرهاً فيه .. عاديته منذ كنت طفلاً .. لم أعرف له طعماً في بيت لم يشرب أهله غير الشاي.

استأنسنا به كملك متوج، لا على المائدة - هذه نعدمها - وإنما فوق حصير متآكل .. هو وجبتنا الرئيسة في الغذاء والعشاء! وأحياناً كان يغيب أياماً؛ فتعوّضه أمي بحكايات عن "ثامْزَا". وبدل أن تسترق النوم من أجفاننا، تضيف، بما ترويه فوق الجوع والدمع يرفض من عينيها، ذلك الجزع الذي ظل يسكننا إلى اليوم..

اليوم كبرتُ (لست أدري كيف حصل ذلك مع هذا "الخبز الحافي")، وأنا - على كل حال - دابة، كبقية الدوابّ .. رزْقها على الله. كبرت رغماً عن الجوع والفاقة والمرض، ومع ذلك تدبّرت أمري، ولم أتسول خبز يومي من أحد، رغم أن سهم الخطوب رشقني بمصميات، بدل أن ترديني قتيلاً تآلفتُ معها وتعايشت؛ كما المريض مع داء مزمن .. ولم يحزَّ في قلبي سوى شيء واحد، هو أني لا أفك الحرف، واليوم حين أرى أقراني يستعملون هواتف نقالة، ويحركونها بين أناملهم، ويتكلمون، ويتلون القرآن في المسجد، ويضحكون بصوت مرتفع، أتساءل: ما جدوى أن أعيش لمجرد أن أتنفس؟...

أحيانا كثيرة أقارن نفسي بالبغل الذي كنا نملكه، قبل أن يبيعه أبي مضطراً.. هو صحيح كان يحرن، لكنه بغل، وأنا مثله. وفوق ذلك، أنا عكسه تماماً، أنقاد لأسيادي، ألبي

طلباتهم، أشتغل عندهم دون أن تصدر عني كلمة "أف"، تصريحاً أو تعريضاً .. يمارسون علي ألواناً شتى من التعذيب، ويُنْزلون بي، في سادية ماتعة بالنسبة إليهم، قهراً يجْبرني على أن أشتغل ساعات طوالاً لا أستريح فيها إلا لماماً...

في الليل أتعب، ولا أحد يرثي لحالي .. أجل أتعب كثيراً، وحين لا أنام، رغم تعبي، أفكر كثيراً في وضع حدٍّ لهذا الكابوس...

"يا الله، ما أبطأ قدوم الصباح على منتظِره! وأنتِ، أيتها النفس، اهْدَئِي، فمن أجلك أشرب حتى الثمالة، ليلي مربوط كأنه يجر من ذيله .. أظل أسامر نفسي، أدخن، حتى ينشر الصبح راياته؛ فأنتشر، وأبحث عن لقمتي..."

لياليَّ نابغية، أستمرئ فيها سهادي، وأنتظر ما لا أعرف... لذلك، أفكر الآن بجدّ في أن أغادر هذا المكان، وأمضي...

أنا فضلة في هذا الزمن..

أميّ، وجاهل..

لا زوج، ولا أولاد..

لا في العير، ولا في النفير..

وأمثالي - لست أدري كم نحن- قمين أن يرحلوا .. أن ينتحروا...

أجل، هذا هو .. عليّ أن أنتحر... سجِّلوا عني هذا! لقد عزمت وتوكلت... منتحر جديد قادم إليكم أيها المنتحرون..

لكن قبْلاً علي أن أهيئ لموتي. سأزفّ نفسي للهاوية .. أنزل إليها كدلو. أصعد إليها كإشاعة. سأحبو نحوها على أربع .. لا يهم .. أن يسحقني الألم الذي سيؤدي إلى الموت هو الأهم...".

وفي الليل، كل ليل، ينخرني الأرَق؛ كما الأرَضَة مع الخشب، وأنا أفكر في الموت؛ فتجد فكرة الانتحار في رأسي الثقيل مرتعها، ومثل الحمى تزورني كلما وقب غاسقي، وتنكُت في رأسي الفارغ... لقد بدأت الآن أخطط لنهايتي الوشيكة، ولن أسألكم - أيها المنتحرون- كيف صارت الأمور معكم؟.. لِمَ العجلة؟.. دعُوني، بدلاً من ذلك، أستمتع بسهادي .. فحين لا أنام، أفكر جيّداً...

أمامي الآن حبلي .. ها أنا أفتله على شكل طاقيْن. سأشكل منه أشروطة، سألفّها حول عنقي غداً، وربما بعد غد .. لكن لحظة.. لا بد لي من الخمر. عليّ أن أسكر أولاً حتى إذا غادرت، سيقول الشامتون: "الخمرة دارت في رأسه، وفعلها "الزايخ"...، وستقول فئة أخرى: "اللعنة.. مات كافراً"،

والثالثة، والرابعة... الجميع سيدْلون بدلوهم بين الدّلاء... لكن هؤلاء أين هم الآن؟ ولِمَ يكثرون فقط في الفضائح؟!

مشكلتي الكبرى أني ضُل ابن ضلّ، فمن سيكتشف جثتي؟.. ومن سيشيع خبر انتحاري؟.. ومن سيبكيني؟..

أسئلة .. أسئلة .. أسئلة، وليلي طويل، بلا آخِر!

واهاً، أيتها النفس، يا لهفي عليك "إذا أدلجوا عني، وأصبحتُ ثاوياً "!

اكتشاف الجثة ستتولاها رائحتي النتنة... والبكاء ليس مشكلاً .. سأبكي نفسي. أشيّعها. أبكيها قبل أن أسْلم روحي... دموعي تجف الآن، ولا تهمي تحت الطلب. لقد نزف البكاء دموع عيني في كل ليل لا أنام فيه؛ لذلك، سأدع دموعي تحرن الآن لتمارس علي سلطتها... فلو يدرون كم بكيت وأبكي في صمت...؟ داخلي نهر من دموع سنين عمري، وفرتها لليوم الأسود، ولي منها من الفائض ما يمكنني من أن أعير لغيري عيني ليبكي بها لو أراد .. وحتى إذا فكروا في تشريح جثتي، سيرتكبون خطأ عمرهم .. أجلاف يكونون .. إنهم حتماً سيغرقون في محيط من الدمع... وهذا لوحده يكفنيي، فلا داعي إذاً إلى البكاء...

وماذا عن القبر يا فهيم؟

سأحفره بنفسي، وسأوصي سيدي، الذي يستغلني، أن يحشرني فيه. وإن خاف على سمعته، فلْيكن وقت ذلك ليلاً .. سيقبل إذا أخبرته بأني، مقابل هذه الخدمة، سأشتغل أضعاف ما يأمرني به، ودون مقابل .. إنه يكنز الدينار، ويعبد الدولار، وإنه مستعد أن يحالف الشيطان، ويعبد النار، فكيف بمنتحر يبغي فقط أن يهيل عليه التراب، وهو يحشره؟...

هذا أمر محسوم .. بقي أن أختار يومي... لكن علي أن أنام قليلاً حتى تصفو نفسي، وأمنح ذهني راحته.. أتمدد. أستلقي على ظهري. أغمض عيني... ولكني لا أنام .. لا أنام!..

"أيها الراقدون، طوبى لكم .. ليلكم موصول بنهار،

ترقدون ولا ترثون لحالي، وليالِيّ نابغية، بلا آخر..

تمتعوا بعالمكم... أما أنا فسأغادر..

غداً، سأنتحر...

يا لهف نفسي على غدا!...

وغداً حين تكتشفون جثتي، لا تقرأوا الفاتحة علي .. إنما على أرواحكم..."

2012/8/01

"إنه في محنة حقيقية مع ما يعرض من
أفلام غربية مترجمة في قنوات النايل سات
..كل فيلم هو صورة عنه .."

مُحارب ليس منه اثنان

أحداث الفيلم الأجنبي "العراب" تتداعى أمامه، وعبارات الترجمة المبثوثة في شريط أسفل الشاشة لا يكترث لها. ورغم أنه لا يفهم اللغة الإنجليزية، فإنه يتتبع الفيلم بمتعة، دون فهمٍ لما يروج، ويبدو أن أبطال الفيلم هم من كانوا يتفرجون عليه .. مضطجع على طرف كرسي، عارٍ تماماً، مسجى كميْت، ولولا جهاز التحكم عن بعد في يده، والذي تحركه أصابعه بعصبية لافتة، لخِلْتُموه مومياء الزمن الآني..

مغرم بالفن السابع بشكل يعتبره مقرفاً، لكن مع هذا الفيلم تحديداً، لم يفهم لماذا تخونه عيناه كل مرة .. الصور تتراقص، والألوان تسبب له العمش، وهو إن كان كل مرة يمسح زجاج نظارته، لم يزده الأمر غير ضباب. هو ضباب،

ربما في قلبه لم يعرف يوماً، أوهذه المرة على الأقل، كيف يجليه..

"ارحل قبل أن تُحمل على ذلك.."

إنها العبارة المترجمة اليتيمة التي يقف عندها منذ بداية الفيلم .. لم يدر لماذا تلتقط عيناه كل ما له علاقة به .. إنهم يعرفونه إذاً، والفيلم يُعرض من أجله! أبطال الفيلم يعرفون سره، ومخرجه لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها عنه .. أيكون مُهماً إلى هذا الحد دون أن يعرف قدْره؟!..

"اِرحل "..

كلمة زلزال، تهد طوله، حتى في حال تمدده، وإن لم تكن فهي تقصر من قامته؛ فينكمش كقنفذ حين يسمعها بلا صوت، أما بالصوت، وأحيانا بالسوط، فتشيب فوده من قبل المشيب..

إنهم لا يرغبون في بقائه .. صاحب البيت الذي يكتريه، الجزار، الخضار، وحتى نفسه .. كلهم يريد أن يرحل، وها هو مخرج الفيلم "فرانسيس فورد كوبولا" يأمره، على لسان البطل، أن يرحل...

قال في نفسه:

" تُفُو " على الأفلام!

إنها تعرض غسيلنا، ومع ذلك يستمتع بها الناس .. كل فيلم صورة عني، وعنكم أيها الحمقى.."

إنه في محنة حقيقية مع ما يعرض من أفلام غربية مترجمة في قنوات "النايل سات" .. كل فيلم هو صورة عنه، وكل بطل يعتبره عدواً، حتى وإن كان يؤدي دوراً يناصر فيه الخير .. الممثلون أكثر الناس نفاقاً بالنسبة إليه، سيما النجوم منهم، الذين يظهرون بمؤخّراتهم عارية فوق الأسرة رفقة غانيات أو زوجات أو... إنهم لا يعنون أبداً ما يقومون به من أدوار .. هو أيضا ممثل، لكن من طراز آخر، والحياة، الهامش منها، هي رُكْحه، أما الجوهر فيها فلِمَنْ يعيش ويدفع أكثر .. وهو في جميع الأحوال لم ينضج بعد، رغم أنه يتعب حين يعد سنين عمره .. هو عربي، ولا فائدة من أن يكبر المرء في بلاد العرب .. يعلم هذه الحقيقة، وغيره يضيف، فوق ذلك، بأن الجوهر فيها مردود ما دامت القشور أسواراً تسيج الدّمَن والذوات .. هكذا، لم تفلح بلاده سوى في تعجيل إقبال

هريره، وإدبار غريره، والشقي الشقي من كان مثله في حساسيته وعَرّه وعاره..

إنه لا يسدد ما عليه من ديون، ولا ينتشر في الأرض. يظل يزفر طوال الوقت، همٌّ واحد يشغله هو أن يشاهد السينما، ويصدر أحكام قيمة على ما يشاهده من أفلام؛ لذلك، فهو في محنة مع جهاز التحكم عن بعد .. كلما قرأ عبارة على لسان البطل، في فيلم معين، يتخيل أنه مقصود، وأن المخرج يعرفه جيداً، وأن الدور الذي منحه للبطل على مقاسه..

الممثل النجم "آل باتشينو" أحبّه كثيراً، وبقدرهذا الحب والإعجاب كره دوره في "العراب" (The Godfather) .. والعائلة "كورليوني"، التي تفقد ابنها الأكبر، لا تدرك أبداً أن تصفيته إنما هي بتدبيرٍ من الابن الأصغر.. وحين قُتل بدم ساخن، لم يقنعه السبب كمشاهد، على الأقل لم يكن من القوة بحيث يغفر للجاني الذي برر فعلته بقتل الشر المضمر في الداخل لا غير. أما صاحبنا فله رأي آخر، هو أن الشر لا يُجتث بالقتل (هذا يذكيه)، وإنما بالخير؛ كما هو الحال في الأفلام المصرية الكلاسيكية، التي تربعت على عرش الشاشات مدةً طويلةً.

وحين شاهد لقطة التصفية، وما أكثر مثل هذه اللقطات في "العراب"!، ضغط على زرّ "يوز" لتقريب صورة الممثل "آل باتشينو" .. جعلها كبيرة؛ بحيث غطت الشاشة. وبعد ذلك، مدّ يده، ونقر بها على سطح زجاجها، ثم زمجر قائلاً:

"أيها الوحش، كيف تستمرئ هذا الكم من القتل .. لمجرد أنك عراب وريث؟!"

نطق بالعبارة، وأحس بنفسه خفيفاً بعدما أتخمته مشاهدات أفلام سينمائية لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد.. يظل واقفاً لبعض الوقت. يترك صور الفيلم تتداعى من جديد، ويسقط الجهاز من يده دون شعور، وينتبه لجرس البيت يرنّ. وبخفة العجلان، يقصد الباب، ينظر من فتحته .. لا زائر.. والصوت كان من الفيلم. وحين انتبه إلى حاله ضرب يده على صدره، ممسكاً بتلابيب ثياب هجرها، ولم يدر أنه حين يشاهد السينما يتعرى تماماً...

تملّى جسده. ولأول مرة يكتشف أن له جسداً قد يفيد ويصلح لأي شيء إلا التمثيل! يتحسس قضيبه، ويترك يده تسرح أسفله. إنها العادة التي اكتسبها من إدمانه على مشاهدة أفلام البورنو. يفعل ذلك ليس لإيقاظ لذة جنسية،

أو إبطالها .. هو يفعل ذلك بوصفه نوعاً من العادة ليس إلاّ .. يحرص دائماً على أن يمسك به، ويوجه كلامه للشياطين من حوله قائلاً: "هذا ما تساوون عندي". يفعل ذلك حين يغضب، و"آل باتشينو" القاتل في الفيلم كان واحداً من الأبالسة الذين يحارب: لذلك طالته لعنته!

إنه يعترف في قرارة نفسه بأن القضيب مسدسٌ كاتمُ الصوت .. يُرْدي شياطينه في مقتل دون ضجة. وهو إن يكن الإمساك به تهمة سراً وعلناً، فهو - بالمقابل - يعدّه سلاحَ من لا سلاح له، ولو تركوه لكتب عليه "للّعن فقط".. أما البول، وأشياء أخرى، فهي عنده مثل فُضالة المآكل، وثُمالة المناهل.. للآخرين استعمالاتهم الخاصة لأجزائهم الحميمية .. ذاكَ شأنهم! الجسد مقدس، وهم أحرار في التعامل معه بالشكل الذي يريحهم... وحَسْبُه هو أنْ يحارب به شياطينه بطريقته...

حبُّه للعري مردُّه إلى حرصه الشديد على شحذ "سلاحه" في أسرع وقت ممكن. وما دامت الثياب تعيقه، فهو يتعرى تماماً، يتربص، ويستعد... و"زوربا" في الفيلم، والذي تجرّأ على قطع أصبعه: لأنه كان يعيقه في صناعة الخزف التي يعشق، ليس أفضل منه؛ ولهذا السبب، فهو من أنصار دعاة "العودة

إلى الطبيعة الأولى"، لكن في غياب الرقباء .. أما بوجودهم، فهو ممثل بارع.. إذا خرج يتأنق، ويلبس أحسن ما لديه .. وإذا ضمه بيته يعود إلى سيرته الأولى .. يشرب، يأكل، يشاهد التفلزة، وهو عار تماماً .. ويده على زناد مسدسه، مستعد في أي لحظة لأنْ يطلق..

ينتهي "الفيلم"، ثم يجثو عل ركبتيْه. يترك يده تسرح أسفله، ويبدأ في ممارسة عادته، في فيلم "سري" خاص هذه المرة. وإذا انتهى، برطم وانخرطم لاعناً الشياطين من حوله، ثم يتأهب للهجوم، ويمسك بسلاحه السفلي، ويصرخ:

"هذا ما تساوون عندي"!..

2013/8/20

"يستمر السرطان في حصد أرواح أبناء الريف...ويستمر الصمت أيضاً، لكن ليس إلى الأبد..."

بأرهاج مات..

أحمد وحيد في غرفته، يشبك يديه إلى الخلف؛ كما يفعل "كولومبو" حين تحيّره جريمة بوليسية. وبذهول يرنو إلى أفقٍ في داخله، متذكراً، عبر ومضات سريعة، حياة أخيه الكبير ("الأب الصغير" كما يحب أن يسميه).. مضى على موته الآن عامان. نخره مرض السرطان كما السوسة. أصابه في مقتل، ومات متأثراً به. ورغم الرِّحْلات الماراتونية إلى الرباط ، والأموال الطائلة التي أنفقت .. كل ذلك لم يفد في شيء .. السرطان كان قد استوطن، ولم ينفع معه لا مال، و لا عطار، ولا استعطاف زمن .. لم يدعه المرض الخبيث إلا بعد أن قضى وطره منه..

كل شيء في البيت يذكره بأبيه الصغيرعلاّل .. صوره، ولوحاته التي رسمها بريشته، وفي ركن من المكتبة كانت تتبدى رواية "بطل من هذا الزمن" للشاعر الروسي الكبير ألكسندر ليرمونتوف، والتي كان يقرأ له منها بعض فصولها في ليالي الشتاء الطويلة، ولم يكن يملّ أبداً من تَكرار فصل بعينه، يتعلق برؤية البطل "بتشورين" للقدر .. "أتراه كان يحزر قدره؛ ولهذا السبب كان يكثر من قراءته؟!.."

أما اللوحة المعلقة في واجهة البيت فطالما ناقشه أحمد في تيمتها المتمثلة في زورق فارغ من الداخل، بدون مجدافين، وسط اللجة، تتلاطمه الأمواج .. كان يقول علال لأخيه:

" لو طلبوا مني أن ألخص عمري في رسم ما كنت لأختار غير زورق فارغ وسط البحر!"

علاّل كان يحسّ بأنه مريض بالسرطان. ويوم أخبره الأطباء في الرباط، امتقع لونه، ولم ينبس ببنت شفة مدةَ ثلاثة أيام. كان ذلك مأتماً حقيقياً لأمه، ولأحمد، وللأسرة كلها. وحين تعايش مع مرضه وبدأ يستجيب للعلاج لم يكن يدع أمه يوماً دون أن يقبّل رأسها، إلى درجة الشك في تصرفاته! كان يبدو أحياناً شخصاً آخر، يأتي بأفعال مريبة، ولكنه حين

يتحدث يقول حكماً، وأحياناً نكتاً بدَلَ أن تضحك كانت العيون بالدمع تتداعى لها..

يوم أخبرهم الطبيب المعالج بالنبإ الصاعقة، ارتعدت فرائص أحمد .. فأنْ يصاب المرء بالسرطان معناه موتٌ محقق، رغم ما يقال عن تقدم الطب. وخلال قيام الطبيب الجرّاح بجولته، متفقداً مرضاه،سأله أحمد، والذعر بادٍ على محيّاه:

- رجاء بروفيسور، اسمح لي بهذا السؤال: هل السرطان مرض وراثي؟..

الطبيب يتأمل أحمد مقدّراً حاله. يربت على كتفه. يسيران معاً كزميلين، ثم يجيبه بهدوء، لكنْ بثقة من يمنح معلومة ثمينة:

- 49% من المغاربة المصابين بالسرطان هم من أبناء منطقة الريف، وانتقال السرطان عبر الجينات الوراثية هو أكثر ما نخشاه .. وهذه الكثرة من مرضى السرطان بمنطقتكم لا يمكن تفسيرها إلا بهذا!..

أحمد يرخي أذنيه، احمرت وجنتاه، ومتلعثماً سأل:

- هل هذا معناه أني التالي في الإصابة بهذا المرض؟!

الطبيب أراد أن يخفف من فزع أحمد، فقال له مبتسماً:

- الأعمار بيد الله أسّي أحمد، ولكني أقول فقط إنّ السرطان في منطقة الريف له سببُه، وهذا ما يفسرانتقال هذا الداء بالوراثة من جيل لآخر!..

لماذا يتذكر أحمد كل هذه التفاصيل الآن؟ ولِمَ تصحو الذكرى، ومعها هذا الكم من الألم كل يوم جمعة بالذات؟!

الجمعة!.. هو اليوم الذي سلم فيه علال روحه لباريها، فكيف لأحمد أن ينسى؟ و أي دواء يقيه سيول التفكير التي تعصف برأسه؟.. إنها التفاصيل التي تنبت في الشرايين، تنداح في جوفه كل يوم، وفي الجمعة تنتشر في كل الأوصال .. تتوالد في جسمه سرطانات تنهش لحمه،عقله، كِيانه... تتولى وظيفة الدم، تسري في عروقه لا ليحيا، بل ليموت ألف مرة كل لحظة، وفي الجمعة تحديداً يصبح مثل هيكل.. ورقة في مهب الريح، تسوقه الذكريات، كما الريح، أمامها، تهجم وتهجم، إلى أن يغرق في حصاد الذكرى، ولا تدع له مجالاً سوى لأنْ يسافر إلى الرباط. جسمه هنا في تمسمان، وروحه

في الرباط!.. سيظل يتذكر حتى لا ينسى... لم تفضل غير الذكرى..

كان قد تعوّد أحمد على أن يسافر مع أخيه "علال" إلى الرباط للعلاج، وكان قريباً منه في كل لحظة، وأفظعها يوم كان يُحتضَر .. حصل ذلك ليلاً من يوم الجمعة، ولم يكن في الغرفة أحد غيرهما. كان الوقت متأخراً، لكن الموت كان يستعجل علالاً. أمسك أحمد بيده. كانت باردة كما الثلج. بدا أصفر بشكل مخيف،ابتسم في وجهه وقال له:

"سامْحَيي أمِّينُو.. سامْحَمَيِ"[1]...

تربى أحمد في كنف أخيه بعد موت أبيه، ولم يُنادِه بـ (أمّينو) وكانت أول مرة يسمعها منه هي لحظة الموت. الكلمة ستؤثر في أحمد كثيراً. وبسببها بدا كما لو كبر عاماً في لحظة... ساد الصمت. علال مسجى على سريره، وأحمد واقف أمامه، وبرباطة جأش يقبّله على جبهته، ويقرأ الفاتحة بصوت كانت له غنة وإرنان. وبعد ذلك، ينخرط في بكاء هستيري أيقظ وأثار كل من كان في عنبر المشفى...

---

[1] - " أعذرني بُني..اعذروني.."

"سامحيي أمينو ..

"سامْحَمَيي"!

تلك كانت آخر ما نطق به أخوه. ستظل العبارة تسكنه، يرددها في داخله. كلما مرت السنون، تنتعش في داخله أكثر .. ومن سيُسامح مَنْ؟... إنه السؤال الذي يجف في الحلق، ويكسر الصمت، ويلعلع في الأرض كرصاص عصابات المافيا...

أسرة أحمد ستسامح ابنها البار علاّلاً. لقد بكاه الحي بأكمله، ودفن في جنازة مهيبة، لكنهم لن يسامحوا أبداً من كان السبب في هذه " المأساة " الريفية... أحمد وغيره من أترابه باتوا مقتنعين بأن إصابات السرطان في منطقة الريف سببها "أرهاج"، الذي كانت تنفثه طائرات العدو انتقاماً من الهزيمة في معركة أنوال...

سيظل كلام البروفيسور يرن في أذني أحمد، لا يبرح تفكيره .. بات يحمل في داخله همّاً آخر. فكم منزل في الريف حصد منه السرطان بعض أفراده، وكم من شهيد مات، احتضنته تربة أرض لم ينبت بها زرع بسبب "أرهاج" إسبانيا، وما ارتوت ولا ارعوت، بل ستظل تقول: "هل من مزيد أيها

الريفيون الذين يركبون رؤوسهم، ويجسرون على أسيادهم... اشربوا إذاً لقاء تمردكم .. اشربوا من نهر صنيعكم... فأيديكم أوكتت، وأفواهكم نفخت..."

أحمد رغب عن الزواج، رغم إلحاح والدته، ووهب نفسه لقضية تشغله باله كله .. لقد أصبح عضواً نشيطاً في "جمعية الدفاع عن ضحايا حرب الغازات السامة بالريف"، وآل على نفسه أن يربي أولاد أخيه علال، وأمه التي لا تكف عن دعوته للزواج كان يقبل رأسها، ويقول لها:

"حسبي أولاد أخي، أما عن نفسي فقد وهبتها لقضية ضحايا أرهاج"...

ويستمر السرطان في حصد أرواح أبناء الريف... ويستمر الصمت أيضاً، لكن ليس إلى الأبد!...

2012/9/02

"كل واحد يرعى بداية حكايته .. يسقيها بصمت. لا أحد منهم يعرف مآلها، ولا كيف ستكون نهايتها.."

الصامتون

البيت الذي تعيش فيه الآن مع الزوج هو هبة من والدها، ولولاه لكانت الآن تفترش العراء، وتلتحف الفضاء .. أبوها قبل أن يموت أوصى بها إخوتها.. هؤلاء تزوجوا، وغيروا جلودهم؛ فأداروا للأخت ظهورهم، والأب الذي كان يعلم، بحكم التجربة، أن الإخوة - مثل الزمن - يقلبون ظهر المجنّ، دون سابق إنذار، وهب لابنته بيتاً متواضعاً. ولأنها وحيدته، فضلاً عن أنها لم تكمل دراستها، أشفق عليها .. وحين دق بابها أول خِطب، أصرت على الزواج به... ولم يُغرها منه غير شيء واحد هو وسامته، أما الباقي فستكشف عنه الأيام خارج السرير..

"س" هي الآن أم لثلاثة أولاد، تعتبرهم يتامى!.. أكبرهم وأسلمهم أنحل من قلم، وأقحل من جلم .. أبوهم مجرد قُعدة جُثمة، لا ترشح صفاته، ولا تندى حصاته .. لا يكاد يبرح بيته، وإذا حمل نفسه وخرج فأقصاه مقهى الحي. لا يبتعد كثيراً عن البيت كطفل يخشى الضياع، وهناك يخمر لساعات حيث يلعب "الرامي" مع أترابه، ويدخن الحشيش..

يستيقظ متأخراً، ولا يهمه من أمر البيت شيء .. همُّه انتظار آخر الشهر ليقبض نصيبه من ثمن كراء مرآب البيت .. ولولاه لعاشت الأسرة بؤساً لا نظيرله...

وحين يضاف إلى هذا البؤس صمت القبور الذي يخيم على الأسرة، والذي يمارسه الأعضاء بشهية مُدمن، يصبح العيش لا يُطاق في غياب التواصل، وتعطل لغة الكلام..

الكلمات التي يرددها الزوج في اليوم الواحد معدودة، حفظتها "س" .. ولولاها لأمكن لها أن تعتبره مجرد أخرس، والزواج - الذي دام أكثر من عشر سنوات - لو تُرجم إلى سيناريو فيلم، لما اكتملت صفحة واحدة منه؛ بسبب صمته المزمن!... في الأول، كانت تفتح معه قنوات عدة للحوار، ولأنها لم تكن تحصد منها غير زفرات تترع من الأعماق متلوة

بمبررات لا تقنع حتى الأطفال الصغار: "أنا عاطل من العمل"، والأبواب موصدة، والدرهم صار عزيزاً...". جارته في صمته، فاحترفته، وأدمنت عليه هي الأخرى..

الزوج "س"، في كل يوم جديد، تنشغل بأمور البيت على سبيل التسلية .. تكنس، تجلس، تقف، تفتح نافذة، تغلق أخرى... وهو منزوٍ في ركن يرمقها صامتاً. وحين تملّ من نظراته، تزيد في زوادة مسجّلتها الوحيدة. تدير شريطها اليتيم، وتستمع لهيفاء وهبي؛ فتغرق في "الواوا" .. فلا الصوت يغريها ولا الكلمات .. إنما فقط لأن هناك مَنْ يقول لها إن لها نصيباً من الشَّبَه معها .. والزوج يظل سادراً، مدندناً، وغارقاً في قصبة رقيقة بَرَاها بنفسه، يمجّ منها أنفاساً طويلة من حشيش الكيف .. يملأ فِناء البيت بروائحَ كريهة اعتادت عليها زوجته مرغمة مع مرور الأيام. هي طالما حمّلت نضاء أجسام الأولاد، وتدني مستواهم الدراسي، وما يعمهم من قشَف، فضلاً عن الشظف، لهذه المادة المخدِّرة... والزوج غير مبال، لا يكش ولا ينش..

ورثتِ الزوج "س"، وكذلك الأولاد، الصمت منه .. قلّ كلام الأم حتى مع أولادها، وهؤلاء يقلدون أحجار أبي الهول داخل

فصولهم الدراسية؛ ذهابهم إلى المدرسة، كما أوْبَتهم منها،جحيم مقيم، على ظهورهم يحملون لا محافظهم فقط، بل بيتهم البارد الصامت...هم مجرد صور في رسوم متحركة بلغة "شارلي شابلن"..

وحين تجتمع الأسرة داخل البيت، تخال على رؤوسها الطير .. شيء واحدٌ مشترك بينهم، وبخيط رفيع يجمعهم .. إنه استمراؤهم الصمتَ، يمور كفُرْن داخل صدر كل واحد منهم، ينداح مع نسيج حكايا خاصة، كل واحد يرعى بداية حكايته.. يسقيها بصمت، ولكن لا أحد منهم يعرف مآلها، ولا كيف ستكون نهايتها.. ومع ذلك، هم ثرثارون مع النفس الأمّارة بالصمت.. ينسجون منها بقاياهم، ويلملمون سواد ليلهم، وبياض نهارهم، ندفاً عبارة عن حوار متخيّل يوزعونه على كل الزوايا في البيت .. قد لا يعني أحداً، لكنه يُغرس مع ذلك، علَّه ينبتُ في مكان من البيت - يوما ما - فمٌ يحكي عن الكل البدايةَ والنهاية معاً..

الولد البكر لا يفهم لماذا لا يتواصل أبواه، وهذا الصمت المزمن الذي يعانقه في بيت بارد هو "وضعية مشكلة"، وما يتعلمه من دروس في المدرسة عن الأسرة، بوصفها خلية

متماسكة، يتهاوى، مع أبويه داخل البيت، كجبل من أوراق .. يصبح الأولاد فيها مجرد نَكِرات، تسوقهم الريح، لمواجهة إعصار لا يقوون على التصدي له...

هذا الولد كره البيت، وعشق الشارع .. ليس من انحراف، وإنما رغبة في معانقة ضجيج السيارات، وصياح المارّة، وصخب الجيران .. كل هذا يُشعره بأنه موجود فعلاً، وما الصمت في بيته وصدره سوى حالة شاذة...

تمنى لو يفيق يوماً على كلمة "صباح الخير" تُقال له، أوْلأحد أخويْه، ولو خطأ!..

لا شيء غير الحلم:

"أبناء غرباء .. ما أتعسهم!..

ويا نفس، كم من الصبر تحتاجين!

ويا سماء، كم أنت بعيدة!..

ويا أرض، لِمَ تسخرين مني ومن أدمعي؟

ولِمَ تُنصفين مع أولاد الناس إلا معي؟!..

صغيرأنا .. وللهمّ في داخلي تجاعيدُ مُسنّ عافته الموت!.."

هذا الولد كره عمره، أيامه، فصوله، لكن الأحد تحديداً له طعم آخر بالنسبة إليه.. سيفيق في آخر أسبوع، ذات أحد، على صراخ في البيت ارتجت له الغرف .. لقد كسر الصمتَ المزمن الساكن فيه .. كانت الأم والأب يصرخان ملء فيهما .. دفعة واحدة يتكلمان، والبيت يتنفس الصعداء. يتثاءب كطفل صغير شبع حليب أمه. كانت "س" تمسك بمسجلتها الوحيدة مهشمة، والزوج يمسك قصبة حشيشه .. جزء منها في اليمنى، والآخر في اليسرى، وفمه فرن ينفث شتائم داعرة في حضرة الأولاد:

- " أبنت الق..."، كسرت السبسي عنوة..

ترد الأم:

- مسجلتي الوحيدة مهشمة!.. أنت الفاعل .. أيها المدمن المأفون...

ظلاّ على هذه الحال مدة، يكيل بعضُهما لبعض سباً وشتائم بالأبيض والأسود، وبالألوان أيضاً. كان الأولاد، في وجوم، يراقبون المشهد في حياد، لكنهم يبتسمون مِلْءَ فيهم، وكجياد صغيرة يستنون داخل غرفتهم .. شيء ما داخلهم

انتفض. راقهم الحوار "الراقي" حول المسجلة والسبسي... بدت الأم، في خصامها مع الزوج، وهي تحاوره، امرأة أخرى .. نبت لها فم، داخله لسان، وللأب مثله .. يا الله!، ما أجمل هذا الأحد..! أخيراً تنفس البيت كلاماً، وفي زواياه حرارة غير معهودة أحس بها الأولاد،تدفّأوا بها...

حبس الأطفال أنفسهم في غرفة واحدة. ضحكوا ببراءة. تحدثوا لأول مرة طويلاً، ثم قرروا أن يكتموا السر... وعزموا على مواصلة تكسير الأشياء الحميمية الخاصة بالأب والأم..

2013/9/30

"في منفاهم الاضطراري، اجتمع الثلاثي الهرم. اتفقوا على أن ينزعوا القناع..."

كشف المستور بين شين، وبرعا، وزلنبور..

قال الراوي:

إنهم ثلاثة ربضوا على صدور شعوبهم مثل الأثافي .. ملوك استثنائيون .. هذا ما أرادوه لأنفسهم..

القاسم المشترك بين الثلاثي الهرم هو أن النار التي أحرقت صاحب عربة خضر لفحت كراسيهم في وقت استثنائي؛ إذ حين كان "شين" يحزم حقائبه، كانت النار تطال ذيل أهداب "برعا" و"زلنبور" دون هوادة، رغم أن بعض أزلامهما قللوا من انتقال عدوى انتفاضة البوعزيزي إلى بلدَيْهما بصلف مجاني، والأحداث التي ستقع، وعلى الهواء مباشرة، ستجمد دماء الثلاثي الهرم في العروق ..

كنت أرى - يقول الراوي - سلطتهم في وجوههم، أما شعورهم فأصغرهم تجاوز السبعين من عمره، ومع ذلك فإن الزمن لم يفلح في أن يزرع نبتته، ويترك بصمته البيضاء عليها؛ ذلك لأنهم قهروا الشيب بمراهمَ تأتيهم خصيصاً لنوع شعورهم بأثمنة كانت ستحل مشاكل شعب بأكمله، ولمدة طويلة، لكن رخاء الشعوب هو آخر ما يشغل هؤلاء، وبالمقابل كان همهم هو أن يظهروا بمظهر شابّ في العشرين من عمره، والظهور بالشعر الأسود الفاحم أمام كاميرات العالم هي الصورة التي كان يحرص الثلاثي على تسويقها..

العلماء، بعد عجزهم عن اختراع دواء للموت، ينشغلون الآن ببديل آخر، وهو تأخير الشيخوخة إلى أبعد مدى! ولأنه لكلٍّ ثمنه. فما يخسَره الثلاثي على شعورهم كان يمكن أن يحل مشاكل شعب بأكمله، إلاّ أن الرأس الذي لا يظهر بما يليق فخير له أن يقطع، وكان هذا شعارهم! ولأنهم أجلاف أصلاً، فالشعر الأسود في رؤوسهم يناديهم من الأعماق، وتلبية النداء، بالنسبة إليهم، واجب، أما خدمة الشعوب، وتحقيق مطامحها، فهذه مجرد نُفاثة سواكهم.

في منفاهم الاضطراري، اجتمع الثلاثي الهرم. اتفقوا على أن ينزعوا القناع، ويتحدثوا بكل صدق، فما عاد شيء يمكن

إخفاؤه، في زمن فيه هاتف نقال وحاسوب وشبكة اسْمُها أنترنت.

شياطينهم ردّدت في حضورهم:

"فلْتسقط الأقنعة. فلْتسقط الأقنعة!"...

هذه المرة - يقول الراوي - كان الشيب قد بدأ يغزو شعورهم، والهرم بدأ يأخذ منهم كل مأخذ.

زلنبور يبدأ الكلام:

- ما حز في قلبي أكثر ليس الكرسي، بل خيمتي .. هي توقيع خاص بي وحدي. سأفتقدها..

شين مشاكساً:

- في كل الأحوال، هي ليست عادية، بل تضاهي قصوري في تونس...

ضحك زلنبور، وقال برعا:

- أهرامات مصر ممثلة في قصري أنا وحدي، فدعكما من المبالغة، فكل واحد منا له توقيعه..

زلنبور:

- أُصدقني القول [الكلام موجه لشين] .. أليس صعباً أن يتخلى أمثالنا عن كرسي السلطة؟! كنتَ أوّلنا فبِمَ شعرت؟

يتنهد شين، ويقول:

- مضطراً لا مُختاراً.

برعا لشين:

- أعلنت في آخر خطاباتك أنك فهمت شعبك، وكررت "فهمت" أكثر من مرة.. فهل يعقل ألا تفهمه وأنت حاكمُه منذ 1987؟!..

شين:

- في المدرسة كنت دائما أنا آخر مَنْ يفهم، وحين حكمتُ الخضراء انسقت مع نزواتي، ولست أنا من فهم شعبي، بل ليلى زوجتي.

برعا متسائلاً:

- كيف؟!

شين:

- كانت تقول إن بطون الشعوب يمكن أن تنتظر؛ لأن أصحابها جُبلوا على الصبر والتحمُّل .. وبدلاً من ذلك، نعمل نحن على تسمين أهلنا أولاً، وما بقي لهم تالياً.

زلنبور:

- وغالبا لا يتبقى لهم شيء طبعاً!..

أضاف شين مؤكداً:

- طلبات ليلى وحْدَها استنزفت ثروات الشعب تماماً .. بشقّ النفس كنت أقوى على تلبية طلبات ليلاي..

زلنبور:

- إيه، كلٌّ يغني على ليلاه، قصّرنا حين لم ننتبه إلى أن لشعوبنا ليلاهم أيضاً!..

برعا:

- وهل كنا لنفسح لهم المجال للحب أيضاً؟.. كان همّهم هو جيوبهم، وترْكها خاوية سلاح مضاد ليس ضد الحب، وإنما ضد أيّ تمرد..

شين:

- فهمت .. أيْوَا فهمت... لهذا، كانت ليلى تقول دائماً: الجوع مثل دموع المرأة هو سلاح ضبط الشعوب.. فأنْ يشبعوا معناه أن يتمردوا؛ لهذا، كنا حِراصاً على أن يظل الشعب جائعاً دائماً...

يسأل برعا:

- لماذا؟

يجيب زلنبور:

- حتى ينصبّ تفكيرهم على بطونهم ليس إلاّ..

برعا:

- كنت أحرص على ملء البنوك في كل بلد، بنكاً بنكاً، فيها أكدس ثرواتي، وما سويسرا، ولا ألمانيا، ولا بلجيكا، ولا فرنسا شغفتْ قلبي، ولكن ما تخزنه لي بنوكُها.

زلنبور:

- على ذِكْر البنوك، أنا أكثركم عِزاً ونفراً وثروة...

شين:

- وهذا يعني أنك أكثر منا نفاقاً ولصوصية..

زلنبور:

- لا .. ليس الأمر كذلك .. أنا مختلف .. أنا العقيد، ولست رئيساً مثلكما، وحصة الأسد لي طبعاً.

برعا:

- الفرق بسيط بيننا جميعاً، بغض النظر عن التسميات والألقاب، وهو أننا حكمْنا جمهوريات ملكية، واستطبْنا

الكراسي الوثيرة. وبدلاً من التناوب، كنا نفكر في تمرير فكرة التوريث..

زلنبور:

- ومع ذلك، أنا مختلف .. أنا مثل ملكة بريطانيا .. أحكم مثلها.

برعا:

- لا تقصد الأسلوب، ولكن مدة الحكم؟..

شين مشاكساً، وقد واتته النكتة:

- مصر بلد الفن، ألم تفكر في أن تصبح مطرباً بعد تنحّيك يا برعا؟

برعا:

- صوتي نشاز، لكن زلنبور لا .. لقد أطرب العالم حقيقة..

الجوقة تغني وترقص:

"زَنگة زَنگة، بِيتْ بِيتْ..

فَرْد فردْ، شِبر شبرْ..

إلى الأمام .. إلى الأمام..

زنگة زنگة، بيت بيت..

فرد فرد، إلى الأمام، ثورة ثورة..."

أصوات أثيرية تلتقط آخر كلمة، ثم تعلق بصوت واحد:

"ثورة تبغي كشف عورة..

"ثورة تبغي كشف عورة..."

زلنبور يتململ، ويشيح عنه سلهامه ثم يقول حاسماً:

- أنا المجد في كل شيء، حتى الطرب، ولِمَ لا؟...

تُسمع أصوات تضحك ملء أفواهها، يشاركها برعا وشين القهقهة.

شين يغير الموضوع:

- كيف واتتْكما فكرة التوريث؟ أو ليس في بلداننا آباء أنجبوا هم أيضاً أولاداً ذكوراً، ومن حقهم أن يفكروا في الحكم غير أولادكم؟

زلنبور لبرعا:

- صحيح، واللهِ صحيح... لهذا، رفعوا في وجهك، يا برعا، شعار "كفاية"!..

برعا شارحاً:

- ألا تحفظان قول الشاعر: "ما ترك الأول للآخِر شيئاً"؟

شين متسائلاً:

- بمعنى؟

برعا غاضباً من جهل شين:

- اسأل ليلى، تَجِدْ عندها الخبر/ الشرح اليقين..

زلنبور يضحك:

- والله صحيح، نحن دوماً الأوائل، وهم الآخِرون، والمفروض ألاّ نترك لهم شيئاً..

شين لبرعا:

- قل لي، رَجَاءً، ما الشعار الذي رفعه الشباب في ميدان التحرير، وأثار أعصابك أكثر من غيره؟

برعا:

- الشعارات كثيرة، ولكنّ أشدها مضاضة قولهم : "لو كان عفريت كان مِشِي"!

ضحك زلنبور وشين ملء شدقيهما، ثم قال زلنبور متبجِّحاً:

- ولأني عفريت، لن أرحل كما فعلتما..

قال شين وبرعا كما لو كانت شفاههما على موعد:

- بل سترحل...

أضاف برعا:

- كنتُ مثلك، لكن ثورة الشعوب، حين تقوم، يصبح عنادنا أمامها شاذاً متورّماً.

زلنبور معقباً:

- أنا ملك ملوك إفريقيا، أرفض الإملاءات، لا أبغي الرحيل، وأنا لست راحلاً...

برعا مشاكساً:

- تحتاج إلى أنْ تسمع قصيدة نزار قباني "أسألك الرحيل" بصوت نجاة الصغيرة؟..

ضحك شين ودندن:

"بحق ذكرياتنا وحبنا الجميل،

وبحق ما سرقته ومَنْ قتلته، نسألك الرحيل .."

زلنبور يرد، وهو يحوّر أبيات نزار كما فعل شين:

- ليبيا تناديني:

"انزع حبيبي معطف السفر، وابق معي إلى نهايات العمر"..

أضاف زلنبور بصلف:

- أنزل عند رغبة حبيبتي ليبيا .. لن أرحل...

برعا بحزم :

- بل سترحل، والسؤال هو: حين ترحل، تُرَى هل ستأخذ معك خيمتك؟!..

زلنبور:

- خيمتي هي ليبيا، وأنا "لست راحلاً" قلتُ لكما..

شياطين زلنبور تهمس لبعضها بعضاً ..

- إنه يهذي! دعونا نَزِدْ له في كمية حبوب هلوسة حب السلطة أكثر وأكثر.

وأصوات عبر الأثير ردّدت نيابةً عن الشعب:

"الآن .. الآن، وليس غداً

احزموا حقائبكم، وارحلوا

الآن .. الآن، وليس غداً

نريدكم أن تفهموا.

الجياد لم تعد لكم..

وعليكم أن تترجّلوا..

لقد آن الأوان أن تترجلوا...

الآن .. الآن، وليس غداً..."

ذلك الغد صار الآن، وصدقت نبوءة الشعب...

وسكت الراوي عن الكلام، بعد أن شنّف أسماع الأنام بحديثه عن برعا وشين وزلنبور .. أول حكمهم إدمان للسلطة، ووسطه سيف ودم ونار، وآخِره خزي ورحيل وعار!..

2011/7/06

"هي والبحر كالقلب من الجسد .. قريبة منه جداً .. تهدهده، وتناغيه صمتاً، وتظل إلى جَنْبه رابضة، وحيدة، رافضة أي اقتراح بدخول البيت.."

نجمة البحـــر*

في المساء لا أحب سوى أن أكون وحيداً. هاتفي الخلوي الذي لا يكف عن الرنين أخنق أنفاسه. أطلق العنان للصوت في داخلي فقط. أنطلق في سيارتي وأهيم، ولا أتوقف سوى عند بحر المدينة (مدحور من لا يقدم الولاء له). أمسح زجاج نظارتي حتى أراه جيداً، وبشكل أفضل. ومن بعيد، ألثم رأسه الأزرق ليباركني، وأسبح بكل ثيابي في مَداه .. قد أعرض عن الدنيا إعراض البشم لكني أمامه دوماً جائع .. وحده يكفيني، ومجرد التطلع إليه شفاء الروح..

هذا المساء، يتوزع الزوار على شاطئ البحر توزُّعاً غير لائق ببهائه.. أسير ببطء بمحاذاتهم. أمرّ بهم. يرونني ولا أراهم.

---

* فازت قصة" نجمة البحر" بجائزة النور العراقية السنوية للإبداع في دورتها السادسة 2014- دورة الشاعر العراقي يحيى السماوي...

فما همّتني حالهم، لكن انشغالهم بالثرثرة عن البحر، وهُم قربه، يصيبني بدوار البر والبحر معاً .. بعضهم يلتفت ويشير إليّ بصلف، فينظر مَنْ معه نحوي.. بالنسبة إليهم، أبدو وسيارتي مجرد نتوء يجب أن يُستأصل! فما لا صلة له بالأزرق لا حياة فيه .. لا حرارة... (مصيبون .. ربما...).

أنا داخل سيارتي أمارس طقسي، ولا يهمني ما يقال .. أحاذي الآن البحر. أقود ببُطْء. أجعل سيارتي تنساب كامرأة ثمِلة قرب شاطئه. أحبّ في البحر كل شيء غير الغدر .. فما أكثر ما يغدر بأحبّائه!.. أما الأعداء، فلا يباركهم أبداً.. يحتفظ بجُثثهم في القاع .. هناك تترسّب حتى تتعفن وتتحلل، دون أن تترك رائحة، ومع ذلك تعافُها أسماك القرش .. للبحر رائحته الطاغية .. وحدها تبقى .. الماء بعضٌ من سلسبيلها، والصخر الذي تتكسّر عليه الأمواج توقيع يقول الكثير..

كل ما في الوجود، الآن على الأقل، مجرد هراء أمام البحر الذي يتمجّد ذكره في الصفاء! أما حين تشتو السماء، وتعوي الرياح، وتُنبت اللجة سناناً.. حينئذ يستعرض هذا المُهر قوته. يزأر كأسد جريح وجائع. يتألم وتنوب أمواجه عن لسانه .. تصير جبالاً.. تتصدى، وتعلن التحدي..

ما أكثر الذين يمارسون طقس الصمت رفقة البحر هذا المساء!.. منهم من يجلسون وحيدين كأيتام، في حضن البحر ينصهرون، له يهبون أسرارهم، يتحدثون إليه بهمس لكنْ بعشق .. كثيرة هي أزماتهم في الحياة التي حلّوها بمجرد الكلام مع البحر...

لو عاش هؤلاء زمني، وعرفوا، كما عرفت، صاحبة البحر لاعتذروا منها ومن البحر، ولأيْقنوا أنهم مجرد نتوء، كما سيارتي تماماً؛ كما يتوهّمون الآن .. في هذه اللحظة.

أنتم الذين تجلسون بجَنْب البحر، وتمارسون طقس الوحدة، وتلعبون، ربما، دور العاشقين معه .. كلكم مع البحر زائد، تمَّ عليكم الدست لأنكم تباركون زيادة كل يوم، في العمر خاصة، أوَ ليست "الزيادة من راس الأحمق" أيها الحمقى؟!.. قرب البحر، أنتم لا تكفون عن التوسل. تريدون من مداه شيئاً ما .. لكنكم لا تعرفون كيف تطلبونه .. وهذا هو الفرق بينكم وبينها..

ليتكم تعرفون نجمة البحر كما عرفتها!.. أنتم مجرد رَذاذ البحر في حضورها، هي الوحيدة - لو تعرفون - لم تكن فضلة .. هي والبحر كالقلب من الجسد .. كانت دائماً قربه تهدهده، وتناغيه صمتاً، وتظل إلى جواره رابضة، وحيدة، رافضة أي

اقتراح بدخول البيت... مبررها من القوة بمكان؛ بحيث تقول إنّ الناس حمقى ومساكين؛ لأنهم يبنون بيوتاً، ويفنون أنفسهم داخلها! الحياة في كل ما هو مفتوح .. دون أقفال .. هذا ما تؤمن به..

ما تزال هناك بالنسبة إليّ .. قريبة منه جداً. تعرف كيف تتودّد إليه. تريد منه كما تريدون شيئاً، لكنها تعرف - وأنتم لا تعرفون - كيف تطلبه...

لم تكن تعْدم وسيلة في توفير الأمن لها في الخارج .. امرأة من حديد، رغم خريف عمرها. لم تتزوج قطّ .. لم تكن أنثى تعشق الرجال .. مجرد التفكير فيهم كفيل بأن يُغضب البحر منها. ظلت تُطْفئ نار شهوتها مذ كانت كاعباً. وبمجرد وضع يدها في ماء البحر تنتشي ، تغتلم . وإذا انتهت، تتوضأ، وتجلس قبالة البحر... الغريبُ في الأمر أنها لا تهذي كمَنْ في مِثل خريف عمرها!.. تحملق في البحر. ترسل نظرها سفينة تبحر في كل البلدان .. وإذا أغمضت عينيها الواهنتين، تكون سفينتها قد رَسَتْ بعد رحلة طويلة..

كنتُ شقياً وصغيراً حين حدّثتني عنها مربيتي .. كانت تقول إنها بركة البلدة كلها .. يومَها لم أكن أبالي بكلام كثير

وكبير يُقال لي، ولكني كنت أعرف، يقيناً، أن هناك عاشقة صامتة اتخذت البحر ملاذاً..

زرتها أول مرة مع مربيتي، وأنا مراهق. وصلنا ذات بحر متأخرين .. كان ذلك وقت الذُّرْوة .. غصّ المكان بالقريب والبعيد. وجدنا الناس حولها يشكلون دائرة، وهي في الوسط غارقة في تأمل البحر، ولا تحسّ بمَنْ حولها رغم الصخب الذي يُسمع من بعيد!.. كان الحاضرون يتكلمون دفعة واحدة، ولا أحد منهم يأبه للآخر، أو يعرف لمن يوجّه كلامه .. يتدافعون كثيران، كلهم يجتهد لكيْ يأخذ مكاناً قربها .. إليها، لا إلى البحر. كانت العيون راصدة، والأفواه تتقد أكثر وأكثر، تلوك كلاماً وعلكة وپيپّا[1].. كل ذلك يحصل أمامها، وهي لا تحس بأحد، ولا تدرك ربما أنها نجمة ساحرة.. ما يشغلها هو البحر .. هو وحده مداها، وما فضل مجرد هوامّ..

أنظر إليها كما ينظرون، وأتمتم بغير صوت: "ما الذي يعشق الناس في مثل هذه المرأة المسنة؟.. أهي من يزورون أم يحبون البحر من خلالها؟ "...

ما أكثر ما حاول الناس - في زيارات عدة - أنْ يكلموها! بيد أنها لم تكن تسمع فقط، بل لم تكن ترى أيضاً .. البحر وحده

1- Pipa كلمة من أصل إسباني يراد منها بذور زهرة عباد الشمس، تُملح وتؤكل، يُطلق عليها المغاربة "الزريعة".

يستحق البوح، وفي عمقه ترى وتنظر.. ومَن حولها لا يستحق.. لا أحد حولها أصلا بالنسبة إليها.. إنها لا تحس بأحد!..

جلستْ قرب البحر وهي رودٌ يانعة. الآن شاختْ، والبحر ما يزال حدثاً!.. يزعم الناس أنهم حين يعودون إلى بيوتهم، بعد زيارتها، يكتشفون أن هناك أموراً منتظرة حصلت...

اليومَ أستعيد هذا الشريط كمن يشاهد تحفة سينمائية دون سأم، وفي كل مرة يكتشف أموراً جديدة فيها .. من بعيد، ومن زجاج سيارتي، يتبدى لي البحر كفارس عربي جاثٍ أمام حصانه .. لم تكن، اليوم، قربه .. العشاق وحدهم، وأيضاً من يجْفوه النوم، يحومون حوله... أنا الموزَّع بين الفئتين أكتفي بشرب ماء ذكرياتي على نخبه ونخبها معاً .. البحر وحيد هذه الليلة .. أين التي كانت تضع يدها في عمقه، وتقيس برودته؟ فما همتها الحرارة يوماً!.. هي من نصيب الرؤوس التي لا تحب البحر .. أتراها معه في خلوة؟!.. أنا أيضاً وحيد الآن، أجيل نظري باحثاً عنها .. البحر صامت تماماً .. أتراه قد انشغل بمكالمة هاتفية منها عبر أثير موجه؟!..

آخر عهدي بها كان في يومٍ تشرينيّ. حرَصت على أن أزورها وحيداً؛ لغرض في نفس البحر الذي تعشقه. اقتربت

منها. صعقني صمتها، رغم أني أدْمنته منها. لا أسمع غير صوت الماء أشبه بفحيح الأفاعي .. كيف لي أن أسألها .. أن أكلّمها، وهي الصائمة دوماً إلا عن تأمل البحر؟!...

كيف لي، يا ربي، أنْ أرى فمها يفتح، ولو مرة واحدة؟!.. وددْتُ لو أكلمها لأقول لها إنني وفيّ لها، وإنني تعلمت منها أن أخلص للأمكنة أكثر من الأشخاص..

كيف يصبر الإنسان على الكلام كل هذا العمر؟.. أتكون حكيمة وراهبة، أمسكت عن شهوتيْ الزمان والمكان، والناس عبثاً يحاولون معها؟!...

قديماً، كثيرون اقتربوا منها. كلموها.. وهي تفكر في صمت وتتركهم .. لكن الغريب أنْ لا أحد منهم لمسها، ليعرف، على الأقل، ما إذا كانت ما تزال حية .. لم يجرؤ أحد على ذلك خوفاً - ربما - من غضب البحر!.. الناس ما زالوا يتذكّرون كيف غرقت البلدة في فيضان حين اقترب منها زائر متهور، ركب رأسه ومد لها يده، وبدأ يهش بها وجهها محاولاً أن يجعلها تنطق، تعب وفقد أعصابه ، ولما لم يفلح نقر على ظهرها كما لو كان يدق باباً .. تراجع إلى الوراء مباشرة دون مقدمات. تبعه الناس كالمَمْسُوسين دون أن يلتفتوا وراءهم. هاموا على وجوههم، ولا أحد منهم يجد تفسيراً لهذا الأمر

الغريب!.. بل لا أحد يسأل؛ لأنهم - ببساطة - لا يتذكرون شيئاً!..

وفي اليوم الموالي، مات الكثير منهم. المرأة التي سهرت على تربيتي، والتي تعلمتْ لغتنا بعد أن هربت من بلدتها بسبب الثأر، أكدت لي هذا الكلام. زعمت أنها كانت ضمنهم يومها .. كانت من النّاجين لسببٍ ما، غير معقول في الغالب! لم أكن أصدّق من هذه الرواية حرفاً واحداً، وأنا بَعْدُ حدَث .. فكيف لي اليوم، وأنا كهل، أن استوعب هذه الخرافة؟.. لكنّ شيئاً واحداً صدّقته، هو وجود هذه المرأة قرب البحر .. إني رأيتها .. زُرْتها مرات عدة. البحر قبالتها وجهاً لوجه، يمارسان قصة حب قيْسية أبدية..

كبرْتُ أنا .. وليست هنا..

المطر يسقط خفيفاً، تنساب معه ذكرياتي على صفحة مرآة سيارتي .. إني أشاهدُ اللحظةَ فيلماً سينمائياً مائياً. أستمتع وأتذكر بحزن...

حين وقفتُ أمامها في آخر لقاء بيننا، لم تقو قدماي على حملي .. في عينيها قوة ما. أحسست بوهن غير عادٍ، ومع ذلك كان لا بد لي من الكلام معها .. لقد جئتها مودعاً، وقد لا أعود أبداً .. وددت أن أقبّل رأسها، أن أضع رأسي الواهن فوق

صدرها قبل أن أهاجر .. لَكَمْ وددت أن أناديها أمّي .. أنا اليتيم اعتبرتها أمي دون حَضْنها، ودون كلام..

اقتربت منها أكثر. بتّ أحس بأنفاسها، انتثرت في خياشيمي كالمسك .. تأملتها. اقتربت أكثر، وأحسست لأول مرة- مذ كنت طفلاً - أنها كائن ينبض حياةً. تشجعت وجثوت على ركبتي أمامها مباشرة .. وجها لوجه .. عيناي في عينيها، وعيناها في البحر .. خفت أن أحضنها أو ألمسها. دمعت عيناي، بعد أن شبعت من تأملها، ومن رائحتها. حملت نفسي .. وقفت، وأنا أجهش بالبكاء. وبمجرد أن حاولت أن أدير لها ظهري، أمسكت يدي وقالت:

"سأنتظرك.. ستعود، وستجدني "حاضية" لَبْحَرْ لـَ.. يَرْحَل.."..

وأنا الآن عدت .. وليست هنا .. هي التي رحلتْ. البحر باقٍ، بحزن طافح يشهد ويبارك ذكراها...

2013/9/01

"قلبي فوق الأرض .. تحت أقدامكم ..
احذروا أن تدوسُوه.."

ذات قلب..

تستيقظ بوهن أزرق مثل جرح متورم. تنظر في المرآة ولا تصدّق ما ترى. تستغرب تحولاً مفاجئاً في تقاسيم محياها.. لم تعهد في وجهها هذا الانحدار .. كرهت دائماً المنحدرين في كل مكان .. وهذا الصباح الماطر يعلوها رغماً عنها .. يزحف نحوها. إنها في الخمسين من عمرها، و حباً في الخريف لم تطمع في ربيع هذا العمر يوماً منذ أن هجرها ابنها الوحيد..

تخرج من البيت متحسسة وجهها. قطرات المطر لا تغسل جراحها. تنظر خلفها مرات عدة. تسرع الخطى. تنتشر مع المنتشرين... وكأي معذب في الأرض، تتأبّط همّها لا حقيبتها. تضع يدها على قلبها وتضغط .. إنها تخاف أن يقفز

من جسدها الواهن أمام جيش من الغادين فيفضحها. لم تثق في قلبها يوماً .. تحمله بين أضْلُعها، وتكره نبْضه. إنه "صندوقها الأسود"!.. يوماً ما، في غيابها أو حضورها، قد يحكي عنها ما تخشى أن تفصح عنه حتى مع نفسها..

حين تختلط بموظفات زميلات لها في العمل، تغار كثيراً، لا من زينتهن، ولا حتى من حليهن .. بل ممّا يحملن في صدورهن.. قلبهن مختلف تماماً .. دليلها على ذلك أنهن لا يضعن أيديهن على الصدر لجسّ نبضه .. اليد هو مقياسها.. إدمانها على وضع كفها على صدرها يوحي لها بهذا الحكم .. تحس بقلبها يخفق بشدة، ولا تعترف، مع ذلك، بأنها حية تُرزق وتعيش..

وصلت متأخرة إلى مقر العمل كما العادة. ينظر إليها من يعرفها من الذين يشتغلون معها طمعاً في تحية الصباح، لكنها تتخيّلهم ينهشون لحمها، ويتنصّتون على نبضات قلبها. تفتح فمها واسعاً كنعسان غير مبال. تتمتم حين تمر بهم. ينظرون إليها، وتضع هي يدها على صدرها مكانَ القلب تحديداً، وتضغط .. ما همّتها النظرات يوماً، ولكن تبعات هذا القلب المريض تحيرّها .. ولا تواصل عملها في وجودهم إلا بعد

أن تأخذ نفَسها. لا تفعل ذلك إلا جالسة .. خفقان القلب مع الوقوف معناه انهيار تام .. وهي التي تحرص على أن تبدو قوية، رابطة الجأش..

كان فمها ما يزال مفتوحاً حين سحبت كرسي مكتبها. ترتمي عليه بكل ثقلها، وتضطجع بحرص كامرأة حامل. تغمض عينيها، لا فمها، ثم تنام .. تفعل ذلك كما لو أتت لنزهة لا لعمل .. يحلو لها أن تتأمل ذاتها بهذا الشكل. في الليل لا تحلم أبداً، لكنها في النهار تظل تحلم وتحلم، وبالألوان. تمقت الأبيض والأسود معاً .. الأبيض ترجوه ولا تناله، والأسود هو ما آلت إليه الآن؛ بسبب قلب يُشعل النار بين جوانحها!..

ظلت على هذه الحال مدة .. تستيقظ على ضجيج منهمر كما المطر في الخارج. تفرك عينيها بيدين مرتجفتين. تحملق في طابور من عباد الله ينتظرون عند بابها توقيعها على وثائقهم الإدارية.. زميلتها إلى جانبها منهمكة في تصفح بعض الوثائق، لا ترفع رأسها عنها إلاّ بعد أن وكزتها، وهي تصرخ في وجهها أمام استغراب الجميع:

"إنه ليس في حقيبتي .. تركته أمسِ هنا .. انظري .. اليوم لا أثر له!..."

تقول ذلك، وتفرغ حقيبة يدها التي تتركها في المكتب، ولا تحملها أبداً .. من كان حاضراً، وقريباً منها، يحملق في ما اندلق منها .. لم يكن غير مشط خَرِب، وأحمر الشفاه، ورزمة من المفاتيح، وبطاقة التعريف، مع ورقة مالية يتيمة بالأبيض والأسود..

تطوّع بعضهم، يجمع مِن على الأرض ما سقط منها. يمدها بأدب لها. لا تقول له: شكراً، وإنما تنهره:

"يفضل قلبي أيها المأفون؟... رُدّ قلبي .. رُدوا قلبي .. بالأمس كان هنا .. أين هو الآن؟.. لصوص..."

أفواه عدة رددت: "الله يستر"، مصحوبة بوشوشات تصدر من هنا وهناك، تحولت، فجأة، إلى احتجاج بصوت مسموع..

كانت ما تزال تتأمل حقيبتها حين حاول أحدهم أن يقترب منها بهدوء حذر. تصرخ في وجهه، وفي وجه الجميع:

"مكانكم جميعاً .. ولا حركة .. قلبي في الأرض .. تحت أقدامكم .. احذروا أن تدوسوه"..

فوضى عارمة تلتْ صياحها .. كانت تصرخ، وهي تفرغ من جديد محتويات الحقيبة فوق مكتبها. ترشق الحاضرين بما ملكت يمينها. المشط شاطَ بعيداً، لكن المفاتيح تقع مثقلة على رأس عجوز، فيما أحمر الشفاه ترسم به قلباً فوق مكتبها، وتلون ورقتها المالية اليتيمة... بدأ بعضهم ينسحب من الطابور. آخرون توزعوا في القسم. القليل منهم يخرج متأففاً ومردِّداً: "لا حول، ولا قلب، ولا عقل!". الباقي يتفرق، وكما الجراد تكالبوا على المكاتب، وهي تصدهم وتصرخ شاخصة إلى أخمص أقدامهم...

زميلتها ضائعة، تبدو - وهي النحيلة - كابنتها حين كانت تصدّ عنها ضربات خابطة، ثم بيدين ثملتين تركّب رقماً في هاتفها الوردي:

"احترامي سيدي الرئيس .. عذراً .. لكن الحالة لا يُسكت عنها ألبتة .. اليوم مختلف تماماً .. الرجاء التصرف الآن، وبسرعة .. النجدة أرجوك...".

2013/9/30

"سيموت الأب، وسيعيش الأولاد ما بقي
لهم راعِينَ قرصَ القمر في دورته.. يتعرّش
دوالي في عيونهم. يكبر في سمائهم. ينير
لهم الدرب، وينشر الضياء في قلوبهم".

حمّام قمر..

منذ أن نجا الشيخ من الموت بأعجوبة بسبب عملية خطيرة في القلب، تغيرت طباعه كثيراً، ومَنْ عرفه من الأصدقاء والأقرباء، قبْلاً، يجزمون أن الرجل فقد عقله، وليس لأن الطبيب استبدل قلبه المريض بآخر ليست به قروح كما يزعمون..

منذ أن عاد من المشفى، باتت تواتيه رغبات شاذة في الأكل، وآخر وجبة تناولها اليومَ هيّأها بنفسه، وهي عبارة عن "بيصارة" مع معجون أسنان..

زوجته المقعدة كانت ترقبه، وهو يتناول وجبته. تصرف كما لم تكن قبالته، ولم يكلف نفسه دعوتها لتشاركه "الملّحَ"

كما كان يفعل. صمته زاد من مخاوف أهل البيت، والشيء الوحيد الذي يطمئنهم هو أنه كان يتعرف أولاده واحداً واحداً، ولا يخطئ في اسم أحد حين يناديه به .. وهذا كافٍ ليقلب الموازين أكثر؛ لأنه، قبل العملية، كثيراً ما كان يخلط بين أسمائهم..

الأيام، بعد عودته من المشفى سالماً، تنثال بغير طعم. تتنخل من بين أكفّ الزمن، والشيخ حاضر يملأ ببركته أكسار البيت. الأولاد والأحفاد مِنْ حوله حبات رمل، يزورونه في آخر الأسبوع، وفي أيام العطل يزدادون .. يتحلقون حوله، وهو إلى جانبهم يقضي يومه يتمتم، يتفرس في سحناتهم وهو يمسك مسبحته. وحين يرفع يده، ويشير بسبّابته، لاأحد يدري أَيحسب حبات سبحته أم أحفاده أم سنين عمره..؟!..

لا يستيقظ مبكراً أبداً مثل الشيوخ في مثل سنه. وتأخره في الصحو مراراً، وليس الاستيقاظ، سبّب هلوسات لزوجته، ستستفحل أكثر حين قالت له يوماً بكل رقة:

- "الفَيْاق بَكْري بالذهب مَشْري" أسيدي الحاج .. تشجَّعْ.. فرك عينيك، وحاول أن تصحو..

لم يجبها حينها. حدجها بنظرة حادة، ثم اكتفى بأن تفل على جنبه الأيسر، تماماً كالحالمين بكوابيس مزعجة، ولكنه بحضور الأولاد سيقول لها:

- شدي أذني مرة أخرى إذا تأخرتُ في النوم آ الوالدة..

ستصعق الزوجة، أما الأولاد فقد عزوا ذلك إلى الحس الكوميدي لدى الوالد .. لقد عرفوه فكِهاً منافثاً .. في مجلسه كان يطرب بنكاته ما لا تطرب المَثالِث؛ لذلك، ضحكوا للموقف كثيراً، بل عدُّوا ذلك أمارة شفاء بعد سوء ظن .. إنه أبوهم ويعود إلى سيرته الأولى بقلب غيره..

وتمر الأيام...

يطمئن الأولاد أكثر على صحة والدهم، وتزداد شكوك الزوجة لا في الشخص الذي يشاركها الفراش، بل في القلب الذي يحمل .. فيما بعد، ستُحمّله كل المسؤولية لما آل إليه زوجها... ولم تكن تعلم أن قلب الشيخ بات ينبض نبْضاً أحسن، بل يبدو أنه استمرأ جوانح جسد إنسان آخر .. وحتماً هو قلب شاب في العشرين من عمره .. فمَنْ كان يتصور أن يتقدم الطب بهذا الشكل، وتصبح الأعضاء مثل قِطَع غيار تصلح لأنْ تأخذ أمكنة غيرها، وتحت الطلب وبأثمنة خيالية؟!..

في غياب الأولاد تظل الزوجة تراقبه، وهي جالسة فوق كرسيها المتحرك. لا تفتأ تقارن بين الذي يقف أمامها، وبين زوجٍ قضت معه سنين عمرها .. الجثة واحدة، لكنّ الرائحة - كما تسميها - التي تنبعث منه ليست ما تعودت عليه أبداً!..

لكن هذا اليوم بالذات، ووجبة البِيصارة مع معجون الأسنان لم يكن ليمر دون أن يترك أثره .. كان الهدوء يخيم على البيت بشكل مقرف، وصمت الشيخ يضفي على البيت وقاراً من نوع خاص .. لا حسيس سوى خطْوات الخادمة تملأ البيت ذهاباً وإياباً..

وستغرب الشمس على صمت ثقيل، صحب معه من السماء، أو من مكان مَا، وصفة للشجن! كان الأولاد قد انتشروا، كلّ في أرضه ينكت، وفي سيبل غلته يسعى... بقي الشيخ في البيت رفقة زوجته المقعدة كما العادة، وكغريبيْن لم يتبادلا كلاماً كثيراً..

قالت الزوجة بوُدّ:

- هل أطلب من الخادمة أن تهيئ قهوتك قبل أن تغادر..؟

ببرود رد عليها :

- لا أرغب سوى في شرب الهواء، في كأس من البلاّر..

قال ذلك، وصعد إلى غرفته بهدوء الشباب .. لم يعد يلهث كما سابقاً. دار دورات حول نفسه كعريس يجرّب كيف سيبدو أمام الناس. فتح خزانة ثيابه، وحمل معه، وهو يهبط عبر السلم، كل جلابيبه .. تأبّط بعضها، فيما الأخرى حملها على ظهره. خرج من الباب دون أن يلتفت لنداء الزوجة. كانت الصدمة بالنسبة إليها قوية، لم تتوقعها أبداً. حركت كرسيها بصعوبة. تبعته دون أن تدركه... الدموع تنهمر من عين بصيرة، غير أن أرجلها قاصرة، ولم تعد تسعفها .. خافت أن يغادر، وإلاّ فلماذا يحمل ثيابه؟ ثم ما الذي يحمله على الرحيل؟.. الأولاد، منذ مرضه، يدلِّلونه كطفل صغير، بل إن منهم من كان يحمله ويلاعبه، رغم كبر سنه..

همست بحرقة:

"يا ربي، سأصبح أضحوكة بعد هذا العمر .. سيقولون استعاد عافيته، وهرب منها؛ لأنها مُقعدة .. وسيقولون، وسيقولون .. يا ويلي!..

من الباب كانت ترمقه، ونفسها حرّى..

في الخارج، كانت السماء تتهيّأ لأنْ تنشر مساءها القمري. رنا الشيخ إلى السماء، وترك رأسه يدور في صفحتها، كطفل يتتبع طائرة ورقية أطلقها في الهواء .. كم وقت مضى على وقفته تلك؟.. ربما وقت قليل، ولكن الصمت الذي أعقبه كان ثقيلاً بالنسبة إلى الزوجة، وحاراً بكل المقاييس... كان الليل قد بدأ يعلن سلطته، وزاد من وحشة المكان كلب في زاوية حديقة البيت يعوي عواء مختلفاً، وزوجته في الداخل، غير بعيدة عنه كثيراً، ترمق الشيخ والكلب معاً .. خالت نباح الكلب بهذا الصوت نذير شؤم .. كانت تردد المعوّذتين كلما نبح، والشيخ بدا قبالته، وهو مثقل بما يحمل، كمهرّج راضٍ عن أدائه...

تنفس الشيخ الصعداء بعد أن عبَّ نفَساً قوياً، ملأ به خياشيمه، ثم بدأ يتخلص من أثقاله.. نشر على أرض الحديقة جلابيبه. جعلها تشكل بساطاً مزركشاً على شكل مربع، أضفى جمالاً آخر على حديقة البيت. بدأ يحوم حولها كما يفعل الهنود مع نارهم، مركزاً نظره على السماء. كان حريصاً على أن تستقبل جلابيبه مكان زوغ القمر. وحين مال بنظره إلى الكلب (اللحظة فقط أحس بوجوده)، ابتسم، ثم واتته رغبة قوية في أنْ ينبح .. رفع صوته، بيْد أنه لم يتمكن من بحّة أعاقته، لكنه قال لنفسه:

"لا جدوى من تقليد الكلاب، على الأقل اللحظة،لقد انتهيت من التفكير الآن.."

كان يقصد ربما عمله. نفض يديه بعد نشر جلابيبه، ثم عاد إلى الداخل منشرحاً خفيفاً كنسمة..

كانت الزوجة قد قامت بالواجب .. لم تكن تطال شيئاً سوى أن تتصل بالأولاد عبر الهاتف..

حضر أغلبهم بسرعة .. استغربوا فعلة الأب .. سأله أوسطهم بحزن:

- هل أنت بخير أبي .. هل تشكو من شيء؟

زاد الآخر:

- استبدّ بنا القلق أبي مِنْ فور اتصال الوالدة! هل نتصل بطبيبك..؟

- قال الثالث مستفسِراً:

- أنت نشرت جلابيبك في هذا الليل أبي؟!

ضحك، ورَدَّ على السؤال الأخير:

- إنني أعرضها لحمّام قمر...

وأضاف آمراً:

- جميع من في هذا البيت في حاجة لحمّام قمر .. إنه صابون القلوب، سيطهركم من الداخل..

(...)

سيموت الأب، وسيعيش الأولاد ما بقي لهم راعِينَ قرصَ القمر في دورته .. يتعرّش دوالي في عيونهم. يكبر في سمائهم. ينير لهم الدرب، وينشر الضياء في قلوبهم..

2014/02/9

فهرس

صدر للمؤلف :

- «ريف الحسناء».. قصص قصيرة -2012 مطبعة Net Rabat
- «نَجِي ليلتي».. قصص قصيرة جدا -2013 مطبعة Net Rabat

الأعمال المشتركة :

- «عطر الفجر».. و«إشراقات».. مؤلفان في القص الوجيز مع كتاب عرب مرموقين..

وسيصدر له قريباً :

- «نُدوب».. في القصة القصيرة جداً..
- «وشهد شاهد...».. في جنس المقال..

تمتازُ قصصُ المجموعةِ بغِنى سِجلاّتها اللغوية والأسلوبية، وبتوظيفِ آليـات فنية وبَلاغية عدة في نَسْج خُيوطهـا؛ مِنْ مِثل المُفارقة والسُّخرية والاخْتزال والإيحاء، وبضَغْطِ المُتخيَّل السَّرْدي على جملةٍ منها إلى حَدِّ الارْتقاء بها إلى أسْنى دَرجات الجمال الإبْداعيّ، بل إنّ منها ما يَغْرَقُ في مُحيط الحُلم البَهيّ، دونَ أنْ تنقطعَ صِلاتُه بالواقع قيْدَ أنْمُلة في الجَوْهر.

إن الأستاذ حرْش، بمَجْموعته «النظير»، يؤكّد رُسوخَ قدَمه في الكتابة القصصيّة، وطنيّا وعربيّاً، وتمكّنَه من إواليـات هذه الكتابة وتقنياتها، وانفتاحَه الواعي على ما اسْتجدّ منها، وقدْرتَه على تطْويع القصة القصيرة لاسْتيعـابِ موضوعاتٍ وإشْكالات كَبيرة ومُلِحّة، لا تبْعُد عن الواقع الماثِل أمامَ الأعْيُن ولا عن هُموم الذات وتطلُّعاتها، وتناوُلها بالاتّكاء على لغة وأسْـلوبٍ متميّزين في الكتابة حقّـاً... ولا يُخامرُني شكٌّ في أنَّ القارئ الكريمَ سيَلْمـسُ هذه الأمور عَقِبَ قراءته قصصَ حِرْش المُضَمَّنة في هذه الأضمومة، وفي مجموعتيْه السابقتيْن أيْضا...

الدكتور فريد أمعضشو

30 درهما